



DIDARAB

رواية عربية هادئة

حكاية بنت اسمها...

مرمر



محمد
عفيفي

عکایہ بیت
اسمہا
مزمور

بیت

محمد عقیلی



دارالہلال

ترترت لمعت في السماء وكل ترترتة في السماء مرمر . يجنب قرص
القمر سارية تلمع ، قمر أواخر محرم العائق بسماء أغسطس الدافئة .
فوق الحقول النسيحة المغتسلة في الضوء الشاحب ، وصوت صغير
صراصير الحقل في ليل الهرم . ولأنها كانت ليلة حارة كهذه أراحت
الكوب الثلجة على ركبها العارية فانبسطت
- الله ساعة وحلوة ! خليها شوية والنبي

هنا على هاتين الشلتين في هذه الشرفة ، وأشارت مرمر الى
هاتين الشجرتين

- حزر الشجرتين دول اسمهم ايه ؟

شجرتا الكازورينا الطويلتان الحاملتان في الضوء ، أشبه بقوسين
حول تلك القمة القريبة للقبر المثلث الكبير

- سقت

فرفعت الكوب عن ركبها ومسحت رشحها الثلج بيد دافئة

- ماتجزر

- غلب حماري

- واحدة مرمر والثانية حمادة

- عاشت الأسامي

- طب تقول مين دي ومين دي ؟

— طب خد ، آدى قلم جديد عشان اسلوبك يتحسن ، ها !
وهنا فى الشرفة جلسنا نستعرض عناصر الرواية ، على صغير
الصراصير فى ليل الهرم
— وانا بافكر اكتشفت حاجة غريبة قوى
— إيه ؟

— عمرك شفتى واحد يحب واحدة اربع مرات ؟
— جيت الرابعة منين ؟
— إحسيهم

— مرة واحنا عيال صغيرين ، ومرة وانا بنت ولو انك كنت
بتكرهنى يا مجرم !

— ما هو عشان باحك
— والمرة اللي احنا فيها يقوا ثلاثة
— آهه هنا الخلاف
— ازاي ؟

— عايزه تقولى انك اتنى هو اتنى ؟
— طبما

— أنا شايف انك بقيتى واحدة تانية
— تبقى مجنون !
— أنا ؟

— ها !

فلا شك فى أن تغييرا كبيرا قد حدث لممر ، أيسر ما فيه انها لم
تكن فيما مضى تقول ها . وتلك النكهة اللادعة فى شفيتها ، هل كانت
موجودة عندما أطلقت على الشجرتين اسمينا ، وعندما كان كنفها
البعيد يستجيب لضمتى بوثة ؟

— دى ممر ؟

— لأدى

— ليه ؟

— شكلها ممر

— حمادة يحب ممر

— وممر تحب حمادة

فطبتت قبلة على خدها وأحطت بذراعى كنفها ، أسعدنى ذلك
الكتف البعيد الذى وثب تحت يدي الى أعلا

— عارفة طالع فى دماغى إيه ؟

— همم ؟

— أكتب عنك رواية

— عنى أنا ؟

— آه ، مانفسكيش فى الخلود ؟

— يا حبيبي ، دنا كنت أحبك بشكل

لأنها لاتعرف كيف سأكتبها ، ولكن الخلود حلو على أى حال

— بس على شرط تقول الحق

— ولا تزعليش ؟

فضحكت حين فهمت

— أصلك مجرم !

منذ عامين بالراحة هذا الكلام ، ومنذ أسبوعين أخرجت من
حقيبتها شيئا أخفته وراء ظهرها ، بعد أن وضعنا صحبة الورد فى

الفازة الايطالية على البار

— ابتديت تكتب الرواية ؟

— تقريبا

— طب ح تبتديها ازاي ؟

— م البداية للأسف

— للأسف ليه ؟

— موضة قديمة

لكنها شيء لا مفر منه في رواية تحكى سيرة ، كل مؤرخ أمين
يجب أن يبدأ حديثه من البداية

— يعنى من يوم ما اتولدت ؟

— لا طبعا ، قبل كده بشوية

— آه صحيح ، انت عرفتني قبل انا ما اعرفك !

في البلكوونة المظلة من ناحية على بحر يوسف ومن الناحية الأخرى
على سور سراي أبى قتب ، رحلت أنظر في صمت إلى الاتفاح
العجيب الذى طرأ على بطن خالتي نفيسة ثم لم أطق على كتمان
السؤال صبيرا

— خالتي ! اتى عيانة ؟

— يه قال الله ولا فالك ! ليه يا بنى ؟

— أصلى شايفك وارمة !

وأشرت إلى بطنها فضحكت هي وأمي

— موش وارمة يا عبيط ، ده عيل !

— عيل !

— آه

— جوه هنا ؟

— آه ويارب تيجى بنت وانا اجوزها لك

— ح تسميها إيه يا نفيسة ؟

— أميرة وادلعها مرمر

لكننى كنت أفكر في مسألة أخرى

— يعنى انا كمان كنت ف بطنك ياماما ؟

— طبعا

— طب خرجت ازاي ؟

— زى كل العيال ما بتخرج

— بتخرج ازاي ؟

— آهى بتخرج

— طب ومين حطنى ف بطنك ؟

— ربنا

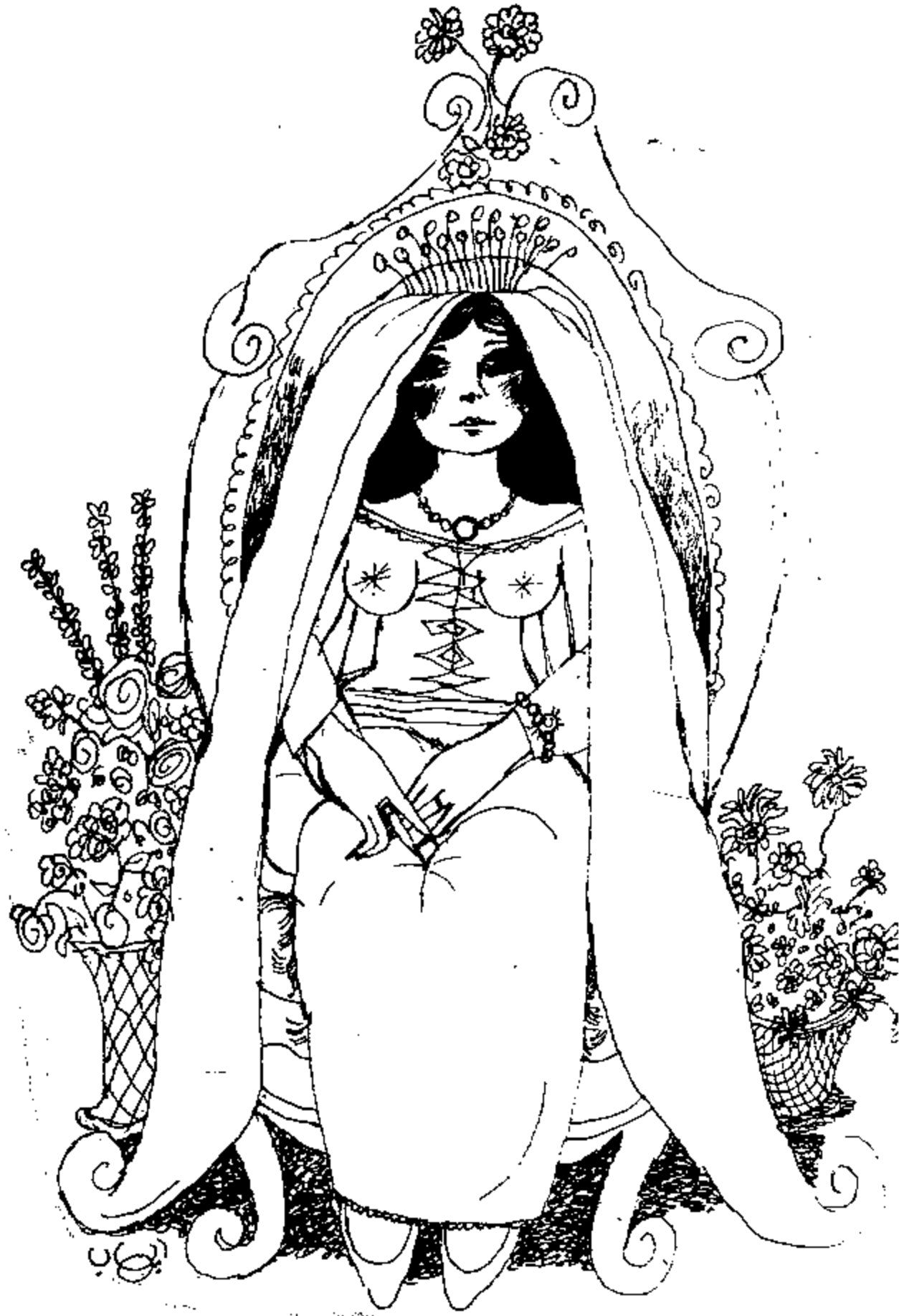
فكان هذا أول كسب أفدته بسبب مرمر . لم أكن أعرف أن الله
هو الذى يضع الأطفال فى بطون النساء ، كنت أظنه فى علاقته
بالأطفال يكتفى بأخذ الشقى منهم لكى يريح منه أمه الغاضبة . وفى
ذات يوم قرب الفجر صرخت خالتي نفيسة وقد جاءها المخاض
فأرسلوا يبحثون عن الداية فى البر الآخر من بحر يوسف . أردت
حين حضرت أن أدخل للفرجة ولكنهم قالوا عيب ، فوقفت وراء
الباب المقلل أرتعد من الخوف . خالتي الكبيرة العاقلة تصرخ
كالعيال ، أليس هذا شيء مفزع ؟ فلا بد أنهم يفتحون بطنها ليخرجوا
طفلها ، اللهم إلا إذا كانت الأطفال تخرج مثلما تخرج فضلات
الطعام . ثم عواء الكائن الغريب الذى خرج إلى الحياة بهذه
الطريقة أو تلك

— جابت بنت يا حمادة ! بنت زى القمر

فسرني أنتى ضمنت عروسة ، ولكن شيئا فى الخبر أدهشنى

— هى كلمتكو يا ماما ؟

— هى العيال الصغيرة تتكلم يا حمادة ؟



— إمال عرفتو منين انها بنت ١٩

— ها ا اما انت بقى

— وعلى فكرة كان دمك ثقيل بشكل ا

— لا يا شيخ ، بس كت غير منى

كتلة العجين التائهة فى اللقائف ، لا هم لها إلا أن تنهش فى ندى خالتي وتنهش . وذات يوم خلعوا عنها اللفة لينظفوها ، رأيت ساقا رفيعة متشنجة ترفص الهواء مثل ساق ضفدعة . ثم خلعوا الكافولة الملوثة وإحساس بالقذارة ملأ نفسى ، ودهشة بالغة من النقص الرهيب أمامى . وبسؤال أمى عن تفسير ذلك النقص قالت أن تلك طبيعة البنات ، وأن الله الذى يضع الأطفال فى البطون هو الذى يقسم أرزاقهم كما يشاء

— أنا برضه مرة سألت ماما عليك

— وقالت لك إيه ؟

— زى امك ما قالت لك ، ها !

الطفلة الحلوة التى انبثقت من كتلة العجين بالوجه الكروى المتورد والعيون السود ، ذات يوم نظت على البلاط حافية وفى يدها برطمان غسل

— غسل ا غسل ا

ودست إصبعها فى البرطمان ثم أخرجته فلعقته . ومال البرطمان فى يدها وسال منه على البلاط شريط غسل ، بللت إصبعها من العسل المسكوب ولعقته

— يابت زروطتى الدنيا ا إمشى يا مضروبة هاتى طبق ا

فتركت العسل وأقبلت نحوى تنظ وتصفق

— غسل ا غسل ا

ومالت إلى الأمام ومدت بوزها نحوى ، الوجه الكروى المتورد
والعيون السود

وطبعت على شفتى قبلة رنانة لزجة كلها عسل . مثل كل قبلات
مرمر فى ذلك العهد ، إما عسل أو طحينية أو رائحة القرنفل الذى
تضعه خالتي فى مربى البلح . من السبابة الكبيرة المعلقة فى سقف
حجرة الكرار ، بجانب الصحارة الكبيرة الصفراء

— ما كاتش صفرة ، كانت بنى

— والله صفرة

— والله بنى

— وحياتك اتى صفرة

— بنى يعنى بنى !

— بصرف النظر عن لونها كانت مفيدة جدا

— ها !

لأنا كنا نختبئ وراءها لتبادل القبل ، بل واختبأنا مرة فى
جوفها ، بعد أن بدأت أمى وخالتي فى زجرنا عن تلك القبل . وأظن
أن أمى كانت جالسة تخرط ملوخية عندما أقبلت عليها مستفسرا

— ماما ! إيتو ليه موش عايزينا نبوس بعض ؟

— عشان عيب !

— ليه ؟

— حرام

— ليه ؟

— ربنا قال كده

— ليه ؟

— آهه كده وخلص بلاش دوشة !

وراء تلك الصحارة أو وراء شيش البلكونة المظلة على بحر
يوسف وسور سراى أبى قتب

— تيجى نستخبى تحت السرير ؟

— يا لله !

وتسلل الغبار إلى أنفى فعطست ، أرشدت العسطة أبا مرمز إلينا
فكانت علقه

— كفاية بوس يا ولاد الكلب باسكو حنش !

وكانت أمى جالسة تقور كوسة عندما قصدنا إليها نستفسر

— لا ما كاتش بتقور كوسة ، كانت بتقمع بامية !

— وشرفك كوسة

— وشرفك انت بامية

— كوسة

— بامية

— مرمز اح نخسر بعض عشان طبخة ؟

— ها !

بدأت أنا بالاستفسار عن مسألة لغوية

— ماما ! هو حنش يعنى إيه ؟

— بسم الله الرحمن الرحيم ! يعنى تعبان

فاتسعت عينا مرمز ذعرا

— طب ليه بابا عايز تعبان ييوسنا ؟

— من كتر بوسكم فى بعض

فتلخلت أنا

— لكن التعبان اذا باسنا موش يمكن يقرصنا ؟

— والنبي تستاهلوا !

ولأثبت شجاعتي أطبقت عليها باليدين ، تتلوى في يدي طرية لزجة
مقرزة فألقيت بها سريعا ، نطت نطتين ودخلت في ثغرة في سور سرى
أبي قتب . فجتوت ومرمر بجانب السور نرقبها ، وصوت مفاجيء
من داخل الحديقة أفرعنا

— إمشوا من هنا يا ولاد الكلب !
ووجه من خلال الثغرة لولد أسمر يزغر لنا ، عرفنا فيه ابن أبي
قتب

— آهه إنت اللي ابن كلب !
— آهه إنت آه !
فتناول الولد الأسمر حفنة من التراب وعفر بها وجهينا ، فجريت
نحو أمي أربها ما صنع التراب بملاسي
— شوفي ابن ابو قتب عمل ايه !؟
— هس اخرس يا واد ماتقولش الكلمة دي !
— الله هو موش بقتب ؟
— هس وطى حسك ! إنت عايز تودينا ف داهية ؟
وتلخلت خالتي
— ده ولى يا حمادة ومن أهل الله
فأدهشني أن يكون لله أهل في مديرية بنى سويف خاصة إذا
كانوا بقتب
— ده راجل مبروك وسره باتع . ده لو سمعك بتقول الكلمة دي
يثنينا قوى
— وهو هنا عشان يسمعني ؟
— ده يسمع من آخر الدنيا
— إذا قلتها تانى ح يطلع لك عفريت !

— عشان البوس عيب ؟

— آه

— وحرام ؟

— آه

— ليه ؟

— تانى !؟

— موش اعرف يا ماما ؟

— ربنا قال كده ، ماحدثش بيوس بنت الا اذا كت مراته

فاتسعت عينا مرمر من جديد

— طب ما تجوزونا !

— شوفي يختى البت !

— ماما ! إتنى متجوزة ؟

— ياندامتى عليك واد ! ماتعرفش ابوك يا واد ؟

— يعنى بابا بيوسك ؟

— لا

— ليه مادام جوزك ؟

— طب انكتم بقى لاخبطك بالمقورة دي !

وهو دليل على أنها كانت كوسة لا بامية ، وعلى شاطيء بحر
بوسف جلسنا كلنا نشم الهوء ذات غروب . مرمر ماشية تتحنجل

وفجأة بسطت ذراعيها مثل جناحي طائرة وبدأت تنز

— زرز زرز ! نفسى أطير يا ماما ! نفسى أطير !

فضربت خالتي نفيسة على صدرها في استنكار

— يه بعد الشر عليكى ! مايطير الا عدوك يا بنتى

وعلى الشاطيء نطت ضفدعة كبيرة تحدثنى مرمر أن أمسكها ،

فرايت في الحمام في تلك الليلة عفريتاً أزرق اللون ، وراثة مرمر
في حجرة الكرار وقالت انه أصفر
- والله أصفر

- وشرفك أزرق ، اتى شفتيه فين بالضبط ؟
- جنب الصحارة

- عشان تعرفي انها صفرة موش بنى

ومهما كان لون العفريت فقد أقنعنا بقدرة الشيخ جاد الله على
إيذاء الأعداء ، ولم نكن أنا ومرمر أول من أودى . هناك ذلك
المستأجر الذي أكل إيجار الفدان فنقر أبو قتب بقرته عينا أسقطتها
ميتة ، والمزارع الذي سرق نصيبه في القطن فاندلعت في بيته ذات
ليلة نار غامضة . لكنه كان لا يخلو من الفوائد للأجباب ، كالمرأة
العاقرة التي ملس على شعرها فأخصبت ، والطفل الذي سمي عليه
فشفاه من الرممد الصديدي بعد أن حارت فيه الوحلة الصحية .
وذات يوم عاد أحد بلدياته من الحجاز يقول إنه قد قابله هناك
وصافحه أثناء الطواف ، في حين أن الشيخ لم يطلع للحج ذلك
العام أصلاً

- فآكر الذكر ؟ الله حي ! الله حي ! الله حي !

وفقرت مرمر برأسها تقلد الذكر وراء سور السراي ، في الحديقة
الواسعة المضاءة بعشرات الكلوبات . أبو قتب في المقدمة ووراءه
عم سالم ، وطابور طويل من رجال عمالقة ينحنون ويمتدلون
ويتمائلون ويقفزون قائلين أن الله حي . على صوت الدفوف دائماً ،
ومع الدفوف سرسعت الزغاريد يوم الاحتفال بطهور ابن أبي قتب .
وفي عربة حنطور مزينة بالورود زفوا الولد الأسمر في البلد بعد أن
ذبحوا له جملاً

- طهور يعني إيه يا ماما ؟

فشرحت لي كيف أنها جراحة صغيرة مثل فتح الدم ، تؤلم قليلاً
ولكنها واجبة بأمر الله لكي يصبح الإنسان طاهراً

- شايفة العروسة الحلوة دي يا مرمر ؟ حاسبى عليها دي باتنين
جنيه

عروسة كبيرة ذات فستان من التل الأحمر المنقوش ، إذا ميلتها
مرمر إلى الوراثة تقول ماما . وعينان سوداوان تدوران في الحجرين
بعكس حركة الرأس ، منظر ملا نفسي حسداً

- اشمعنى أنا ماتجيبوليش عروسة زيها ؟

- هو انت بنت يا حمادة ؟ ح نجيب لك بسكليتة بتلت عجلائ
فلعب الفأر في عبي ، عروسة لمرمر وبسكليتة لي - إيه الحكاية ؟
- شوف يا حمادة ، إحنا مسلمين وموحدين بالله ؟ موش كده
برضه ؟

فلعب الفأر في عبي أكثر

- الشيخ جاد الله قال لعمك سالم حرام نستنى عليكم بعد كده
فكم صرخت مرمر يوم حضر أبوها ومعه ذلك اليهودي التعس ،
تشبثت برجل السرير وتعاونوا على حملها بالقوة وهي تصرخ
وترفض بجنون . أقفلوا عليها الباب ولم أفهم ماذا يمكن أن يكون
نفعها لذلك اليهودي

- إذا صرخت زيها موش ح اجيب لك البسكليتة !

فلا أذكر أنني صرخت صرخة واحدة ، على الرغم من العاصفة
المحتدمة في صدري . في وجوم قابلت ابتسامة الرجل الكريهة ،

واكتفت برجل مخلوعة منها . وفي بيتنا الجديد كنت أقبل تلك الرجل
دامع العين . في البلكونة المظلة من بعيد على منذنة الحسين
- وعليكى اتى تحكى بعد كده ، عملتى إيه بعد انا ماسافت ؟
- دخلت ياسيدى المدرسة واتعلمت الكتابة ، موش فآكر
الجوابات اللى كنت بابعثها لك ؟

- يارقتى شلتها ، كانت تنفع فى الرواية
- المدرسة بعيد .. أنا ومبروكة نمشى لها يوماتى بالساعة
- كلام فارغ . المدرسة ورا سراية ابو قتب على طول
- ما انت موش عارف كنت بامشى ازاي ا
- يعنى إيه ؟
- ها ا

ونفضت مرمر وسارت هنا أمامى ، بخطوات قصيرة متسللة تقلد
مشيتها زمان

- والله كدهه ياحمادة ا كدهه ا
إذ أخبرتها مبروكة أنه رب حركة عنيفة تسبب لها نزيفا خطيرا
يفقدها إلى الأبد شيئا غاليا ، ويخيل إليها أن خالتي نقيسة نفسها
أيدت ذلك الكلام

- ولا يوم مانا بالعب الحجلة ا
بعد سنوات حين فوجئت أثناء لعبها بما خيل إليها أنه ذلك
النزيف ، أخفت الأمر عن الجميع حتى عز أمها وعاشت أسبوعا من
الضياح

- عيطت لك يابنى عياط ! وماما تسألنى أقول مافيش
لولا أن مبروكة عثرت على شيء من لوازمها فحملته إلى خالتي
- إخص عليكى يا مرمر ا دى حاجة تخيبها على ا

والصلعة الصدئة وهو يجثو على الأرض بين ساقى . اليهودى الذى
سمعتهم يصفونه بالنجاسة ألف مرة ، لماذا يحضرونه اليوم لكى
يقنطع من لحمى ؟ موسى الدامية فى اليد النجسة ، كيف أصدق
أنها شيء بأمر الله ؟ لكننى لم أصرخ ، مسلما نفسى للعملية مثل
ذلك الفتى الذى صورته الرسام الفرعونى ، فى صمت مقدس يقف
واهباً لحبه فداء للآلهة

- حلوة عروستك يا مرمر ؟

- تقرف ا

حيث جلست على سريرها محتقنة منكوشة الشعر غاضبة ،
وتناولت العروسة فطوحها على طول ذراعها ، أصابت برلمان
العسل على البوريه وقلبت

- آه يا كلبة ! كده العروسة ام اتنين جنيه ؟

- أحسن ا

لأن الصدمة أتلقت إحدى عينيها ، جمدت فى محجرها وصارت
عروسة حولاء

- على فكرة رجل العروسة دى لسه عندى ، شفتها مدموسة
مع حاجات قديمة

- وإيه جابها لك ؟

- موش فآكرة ؟

- دى لأ

أرادت أن تهدينى شيئا أتذكرها به فى مصر عندما تقرر رحيلى
أنا وأمى ، بعد أن عاد أبى من رحلته الطويلة فى السودان . وعدتتى
أول الأمر بأن تعطينى العروسة نفسها ، ثم بخلت بها فى آخر لحظة

وقبلتها وأفهمتها أنه شيء يحدث لكل البنات في سنها ، وإن
كانت الحكاية قد أتت مبكرة نوعاً : وصاروا يزجرونها عن الوفوف
في البلكوثة ولا يدعونها تخرج من البيت وحدها ، لأن الذئاب على
بحر يوسف لا توجد في الحقول فحسب

— ماهمش عارفين أن فيه ديابة في المدارس !

— إزاي ؟

— مرة مدرس الحساب نده لى في أودة المدرسين وباسنى !

— دى أرحم من غيرها . مرة مدرس عربى نده لى أنا وكان عايز

يوسنى !

— ها ا ج تكتب الكلام ده في الرواية ؟

— طبعا لا ، هى عنك ولا عنى ؟

— طب زهقت تفكير بقى ، سمعنا حاجة حلوة

— الأليجريتو ؟

— إلا الهباب ده !

لم تعد تحتل مايشيره فيها ذلك الأليجريتو من ذكريات عن
الشوارب والضفادع . فأدرت لها النزوات الإسبانية التى تحبها ،
ومزيج العسل والنكهة اللاذعة فى شفتى مرمر الرابعة . هنا فى هذه
الشرفة على هاتين الشلتين ، أمام هذين القوسين حول القبر المثلث
القريب . بناء خوفو لكى يعيش فيه بعد أن يموت ، محطة انطلاق
لمركبه الخشبية على شعاع شمس . وعلى صوت الصفير علا فى
السماء صوت أزيز ، وترتررة صغيرة لمعت جنب قرص القمر . فلماذا
لا أرفع الكأس وأشرب نخبها من زجاجتها ، أليست كل ترتررة فى
السماء مرمر ؟

— ٢ —

— مرة واحنا عيال ، ومرة وانا بنت ولو اناك كنت بتكرهنى
يا مجرم !

لكننى فى الحقيقة لم اكن اكرهها عندما أحببتها للمرة الثانية ،
إنما كنت اكره النداهة . بعد عشر سنوات فى البيت المطل من بعيد
على مئذنة الحسين ، على الكنبة العالية فى الصالة جلس أبى يلضم
سبعته التى انفطت

— مايدخلوها داخلية ؛ مالنا احنا مافيش فى بلدهم ثانوى بنات ؟

فضربت أمى بيدها على صدرها مستنكرة

— يا عيب الشوم يا ابو حمادة ؟ بيتى موجود وبنت اختى تدخل

داخلية ؟ حقا دى تبقى عيبة كبيرة قوى

ومرة أخرى عاود الكلام فى الموضوع وهو لايعرف إننى أسمع

— بنت بنوت زى دى وعندنا ولد بالغ ، مالنا احنا ومال

المسئولية دى ؟ نخط الجاز جنب النار ونرجع نقول ابصر ايه ؟

فاغتنظت منه لهذا الشك فى خلقى ، فرحت فيه بشدة عندما رفع

قدمه اليسرى إلى الحوض ليغسلها وهو يتوضأ . فانزلت قدمه

الأخرى على فردة القباق

— إبنى كويس وانا عارفاه ، ما بشقوتوش ركعة واحدة .

فشكرت لأمى ثقتها فى ، وفى شوق بالغ جلست أنتظر وصول

خالتي ومرمر . فبأى صورة تدخل على البنت التي فارقتها طفلة ذات وجه كروي وشعر منكوش دائما ؟

حلم حتى دخل من الباب ، حبيتي مرمر في الفستان القטיפيعة الأحمر . الوجه الكروي أصبح مستديرا متوردا أبيض ، ونجمتان لامعتان حيث العيون السود . مثل شعرها الأسود الطويل الذي يتهدل على كتفيها ويكاد يلامس منها صدر العذراء ، بسرعة نزع عيني عن الصدر الناهد والعين تزني . صافحتها بابتسامة مرتعشة وتحاشيت أن أضغط على يدها ، الفتنة النائمة لعن الله من يوقظها

قبلات كثيرة طرقت بين أمي وخالتي ، واحتضنت أمي مرمر حتى كادت - يابختها - تفعضها . وفي آخر تلك الطرقة الطويلة أفردت للضيفتين حجرة ، الطرقة المعتمة إلا من شعاع ذابل يتسلل من شباك المنور . ومنذ تلك اللحظة صارت هذه الحجرة مركز الثقل في البيت ، خاصة بعد أن حان موعد رحيل خالتي

- ما اوصكيش على مرمر يا فاطمة ..

- ما تخافيش يا نفيسة ، مرمر في العين دي وفي العين دي

- وانت يا حمادة ..

- يا سلام يا خالتي ا

ولاذت مرمر بحجرتها طول الوقت ، بابها مقفل عليها معتزلة خائفة

- يابنتي تعالي اقعدى معانا ..

- باذاكر يا خالتي

وصوتها رن في أذني كصوت حورية إذا كان للهوريات صوت ، ومنظرها وهي تحتضن شنطة المدرسة إلى المريلة الكحلية كان روعة . أراد أبي من أمي أن تقص لمرمر شعرها فرفضت ، أهذا الحرير

يا أبا حمادة شيء يقص ؟ فسكت وجلس على الكنبه العالية يسبح ، وبلا مناسبة يتحنح كلما مرت به مرمر . في قدميها شبشب صوف أحمر تسير به بدون صوت كأنها قطة بيضاء ، على ساقين رشيقتين بسرعة أنزع عيني عنهما والعين تزني . فإذا التقيا في تلك الطرقة وجدتنى أنا الآخر أتحنح ، أتحاشاها وتتحاشاني كغريبين في طريق عام

صرت أتلو سورة يس بعد الصبح الحاضر لكني أكون أقوى على دفع الفتنة . لأن مرمر كانت في خيالي طول الوقت ، الأثني التي لم أعرف قط ملمسها ولا يد أنه شيء غريب نادر . الأرض البكر لم تطأها قدم إنسان ، الجنون الدافئ المحبوس في قمقم من اللحم الحرام

- كلى يابنتي ...

- مانا باكل يا خالتي

لقمة صغيرة تدسها في فمها بسرعة كأنها تغافلنا ، وتمضغها وراء شفيتين لأرنب خائف . وسرعان ماتنهض قائلة أنها شبعت

- يابنتي ده صحنك زي ماهو

- شبعت يا خالتي

وصوت الماء في الحوض ثم صوت بابها يعلق عليها لتعتزل

هاية سكيينة . والله ما كان لها مجي هنا أبدا !

- ع ترجع تاني يا أبو حمادة ؟

لكن هية مرمر لم تدم طويلا ، في عينها طرات نظرة ماكرة تريد أن تحدثني عن سر قديم بيننا . نظرة خاصة تقابلني بها في الطرقة وهي تبسم ، وعندما تبسم البنت مرمر يحدث في وجهها شيء جد

غريب . تتباعد زاويتنا فمها وتذوبان في وجنتيها في ابتسامه لها عذوبة
العسل ، أزد عليها- بابتسامه مرتعشة ذليلة متهربة وأنا أغض عينا
ترنى

وَصرت أقرأ سورة يس بعد صلاة العشاء أيضا ، والوتر جعلته
ثلاث ركعات مع أن أبي يكتفى بركعة واحدة . وذات مساء جلست
في الصلاة أستمع في الراديو إلى تلاوة للشيخ رفعت ، والطريقة
الطويلة المعتمة ممتدة في صمت إلى باب مرمر المقفل . وفي صمت
رأيت الباب ينفرج عن مستطيل من الثور في حجرتها ، ووراءه تقف
مرمر في قميص نوم وردي . هناك تنظر نحوي وتبتسم ، ورفع
يدها سوت بها شعرها الأسود . الفتنة تناديني عامدة أم أنا أتخيل
الأموه ؟ الباب السحري في آخر الطريقة المعتمة ، لعن الله من يفكر
في الاقتراب منه

— إوعى الشيطان يلعب بعقلك يا حمادة ! مرمر دي زى اختك
وأمانة في رقبنا

— ماتخافيش يا ماما ، أنا موش من دول !

فلماذا خرجت يا ماما في تلك الأمسية الباردة من أمسيات الشتاء
وأنت تعرفين ما تعرفين عن الأعب الشيطان ؟ في تلك الأمسية
جلست أرتعد رعدة مزدوجة ، وحدي في البيت مع الفتنة . بابي
أغلقتة على ووقمت وراء زجاج النافذة أرنو إلى المئذنة البعيدة
مستنجدا . وبالقرب منها حدائتان على سطح البيت ، إحداهما
تصرخ وتضرب الهواء بجناح مجنون . كاد قلبي ينخلع عندما سمعت
تلك النقرة على بابي ، فمن في البيت سوى مرمر ؟ مرتعدا فتحت
الباب ورأيتها أمامي بابتسامه العسل ، في يدها برطمان عسل وفي
عينها نظرة ماكرة



— العطا جامد قوى ، تقدر تفتحه ؟

فتناولت البرطمان وعالجت الغطاء

— بدمتك يابت ده كان جامد ؟

هنا في الشرفة حيث جلسنا تذكر منذ أسابيع

— ها ! ولما هو موش جامد ما فتحتوش دغرى ليه ؟

لأنتى فجأة صرت يوسف أمام امرأة العزيز ، ثوبه قد من دبر
لأنه رأى برهان ربه فأين لى بمثل ذلك البرهان ؟ غطاء البرطمان
عصلج في يدي أنا الآخر بلا مناسبة ، وبحثت عن علبه كبريت لى
أسخنه بها . الأجسام الصلبة تتمدد بالحرارة وممر واقفة تبسم ،
شعرها الأسود يتهدل كجبال الشيطان على صدر العذراء . فلما
فتح البرطمان ناولته لها وهمت بالخروج فأمسكت يدها — كلا كان
الشيطان لا أنا هو الذى أمسكها . بيد متوترة مثل قلبى وأحشائى
جذبتها لتجلس على الكنبه ، وكان صوتى حين تكلمت لزجا يتهدج

— ممر !

— إيه حمادة ؟

— تقعدى معايا شوية ؟

— ليه ؟

— ممر ...

وأحطت كنفها بذراع ترتعد مثل كل خلية في جسدى

— حمادة ! بتعمل إيه ؟

— أحبك يا ممر !

وقبلت وجنتها بشفتين محموتين ، ووثب كنفها البعيد في يدي

وثبتين

— حمادة !

— ممر .. تحببى ؟

— قوى يا حمادة !

بحثت عن شفتيها ، أول شفتين لأول أثنى في حياتى . اللسعة
ازهية للنشوة الأولى لحظة الاكتشاف ، الجنون الساخن في اللحم
الحرام . لحظة خاطفة من النشوة وأدرت لها ظهرى وأنا أرتعد ،
رأيتها تسرع بالخروج متعثرة في فردة خلعت من شبسبها الأحمر
فأقفلت بابى ووقت أبكى وراء زجاج النافذة ، ناظرا في ذلة الى
شبح المئذنة التى بدأ يلفها الظلام . ما كان أتعس آدم وهو
يفادر الجنة محملا بخطيئة البشر ، مطرق الرأس خزيان يدارى
باليد الآثمة عورته

— يارب ! إنى أخطأت ولكن رحمتك وسعت كل شىء . أعف

عنى يارب وأعاهدك على أن لا أعود الى الزلل من جديد !

كنت دائما أخاطب الله باللغة الفصحى توقيرا له ، تعالى سبحانه

عنى وعن توقيرى . وتطهرت وثبت واتهزت فرصة لقائى بممر

في الطريقة المعتمة

— سامحيني يا أميرة ، الشيطان وحش !

صامته نظرت الى باستغراب

— أنا ضعفت لكن خلاص تبت .. سامحيني يا أميرة !

فأشاحت بوجه متورد وابتعدت ، وذات مساء جلست أستمع

إلى الشيخ الشعشاعى . لبت الراديو لم يكن موضوعا في تلك

الزاوية من الصلاة ، حيث يشرف الجالس على تلك الطريقة الطويلة

المتدة إلى باب الفتنة الذى فتح من جديد . وفي مستطيل الضوء

خلال الباب الموارب أشرقت على وجه ممر ابتسامة العسل ،

ورفعت إصبعها إلى شفتيها فقبلته . ألف طبلة دقت في صدرى مكان

القلب ، وذكرت النداهة التي طالما سمعت عنها في حواديت أمي ،
حيث مكان الثدين شوكان حادتان تفوصان عند العناق في صدور
الرجال

— هي اسمها النداهة ولا المزيرة ؟

هنا في الشرفة ونحن نتذاكر فقلت ها ، ثم غلظت صوتها لتقلني
— سامحيني يا أميرة ، الشيطان وحش ! كان دمك ثقيل بشكل !
ومربع زجاجي مضى في باب حجرة أبي المعلق ، سيقراً قليلاً ثم
ينام . نور الإيمان في حجرة أبي أظن أن ينطفئ ، العبد الخاطيء
الرابض في ظلام حجرته يرتعد . النداهة نادتن للرحلة الآئمة
واتتهى الأمر . في حذر اللص أتسلل في الصالة والناس نيام ، زاحفاً
على أربع مثل ذئب في حقول بحر يوسف . الرحلة المحمومة على
البلاط الساقع في زمهرير الشتاء ، بين المائدة والبوفيه يزحف العبد
الخاطيء وهو ينتفض . في عقله يستذكر أماكن الأشياء مخافة
الاصطدام بصفرة البوفيه ، أو بوز كرسي يدخل في عينه الآئمة .
والحائط الحجري طوال الطريقة يكاد لا ينتهي أبداً ، ثم ملمس خشب
الباب والأكرة الثلجة التي تدور بصبر خافت

— يارب إني زلت ثانياً ولكن رحمتك وسعت كل شيء ! أبتهل
إليك يارب أن تعصمني من شر نفسي ، وأن تلبني لي هذا الطلب
الصغير !

معاهدة صغيرة رجوته تعالى أن يعقدها معي ، البند الأول فيها
هو استثنائي من حكاية أن كل أجل له كتاب . أنا أضرع إليه تعالى
أن يصعقني للفور إذا ما مددت يدي الآئمة إلى أكرة باب مرمر ،
وذلك توطئة لأن يقذف بي إلى جهنم خالداً فيها أبداً . حقاً ان
المشرك وحده هو الذي يطرد من رحمة الله إلى الأبد ، ولكنني أريد

هذا الاستثناء الجديد ، بأن يرفعني سبحانه من مرتبة زان عادي إلى
مرتبة مشرك . بهذه الطريقة وحدها يسد على مسالك الزلل ويقيني
شر نفسي ، فهل أنا مجنون حتى أعرض نفسي لعذاب الأبد في السعير
في سبيل لحظة من الجنون الساخن ؟

وفي الطريقة تصيدت مرمر من جديد لكي أعتذر لها

— خلاص يا أميرة ، صدقيني خلاص !

فواجهتني بنفس النظرة المستعربة

— موش ح اضعف تاني ، صدقيني يا أميرة . بس اتنى كمان لازم

تساعديني .. سكي بابك عليكى قبل ما تنامى !

لكن باب مرمر لم يسك أبداً ، ولذلك أرجو أن لا يكون الله قد
قبل تلك المعاهدة وإلا فأنا من المشركين . طوال السنة الدراسية
وحتى بعد أن اقترب الامتحان ، فقلبت وجوه النظر في الموضوع حتى
استقر رأيي على قرار حاسم ، دخلت على أمي ذات صباح وأظنها
كانت جالسة تقشر بصلاً

— ماما ! أنا غايز أكلمك في حاجة

ولا بد أن صوتي كان خطيراً بدليل تلك النظرة الخائفة التي بدت

في عين أمي

— أميرة لازم تشي من هنا يا ماما !

فواصلت النظر إلى بتلك النظرة الخائفة ثم خفضت رأسها وقد
فهت ، كأنها كانت تتوقع أن تسمع هذا الكلام من زمان . وحكيت
لها قصة ملفقة عن الشيطان الذي لعب بعقلي وأرسلني ذات ليلة إلى
باب أميرة ووضع يدي على أكرته ، كدت أفتحه وأدخل لوباً أنه
رأيت مثل يوسف برهان ربي ، فمن يضمن لنا أن أرى ذلك البرهان
في كل مرة ؟ أليس من الممكن أن أضعف ذات يوم وأورط نفسي

وأميرة في شيء لا تحمد عقباه ؟

— وماتسيش ياماما انك اتى اللى كلمتيني بنفسك عن الشيطان !
ومرمر زى اختى وأمانة فى رقبتنا !
فترقرقت فى عينيها دموع لا أعرف ان كانت من الحزن أو البصل
أو منهما معا

- ٣ -

مرمر وحمادة ساجيتان محمرتان فيسا تبقى من ضوء الشفق ،
بعد أن غربت الشمس بالقرب من قمة الهرم مقصوف الرأس ، وفى
ذات غروب كهذا سرحت مرمر يبصرها عبر الحقول وتصعبت

— موش عارفه ليه دايم الغروب يزعلنى
— إتخيلى نفسك فى الناحية الثانية م الأرض تلاقيه شروق
لكننى أنا الاخر كنت حزينا ، لشعورى حيث جلسنا بأن تلك
اللى تجالسنى كان يسكن أن تكون زوجتى
— بدمتك يا مرمر ، لو جيت خطبتك كان ابوكى وافق ؟

فرمقتنى فى ازدراء عابث

— طبع لا ، إنت مين إنت ؟

— سبقنى ابن الكلب ا

الولد الأسمر فى العربة الحنطور المزينة بالورود وسط الزغاريد ،
أخذ بكالوريوس الزراعة قبلى بستين وعاد إلى بحر يوسف لاستلام
العرش الطين

— معقول ابن الشيخ جاد الله يخطبنى وبابا يقول لا ؟

— كان يطلع له عفريت ا وعلى فكرة العفريت كان ازرق موش

بنفسجى

لكنها لم تكن فى نوبة جدل ، سرحت عبر الحقول وتصعبت

من جديد



— طول مانا قاعدة في الكوشة اتبصص عليك

وأمي أيضا أرادت أن أصحبها إلى الفرح الكبير على بحر يوسف
لكنني رفضت . في البلكونة المظلة على مئذنة الحسين جلست وحدي
أبكي ، في أسوأ ليلة مرت على في حياتي . من خلال دموعي تتراءى
صورة محبومة لمرمر بين أحضان رجل آخر ، وأنا المسئول عن
إلقائها بين تلك الأحضان

— بدمتك عيبت صحيح ؟

أي والله وأغرقت صفحات من إرادة الحياة ، آمنت مع شوبنهاور
بأن الحياة شر

— أصل شكلك موش وش عياط أبدا !

والله بكيت وأغرقت صفحات نقد العقل الخالص أيضا ، ساعد
على ذلك بالطبع أنني لا أفهمه
طوال شهر العسل أغرق بدموعي مقررات الفلسفة فلا أدري كيف
نجحت في الامتحان

— أنا كمان عيبت لما شبع

— معذورة ، موش مجوزينك وولف ؟

واتظروا أن تحمل فلم تحمل ، شهرا بعد شهر مع أن الطبيب قال
انه ليس فيها عيب

— ليه ماخلوش ابو قتب يملس عليكى ؟

فضحكت مرمر

— بلا نيلة ، ملس لما ايديه وجعت !

وفسروا تلك الخيبة بأن كرامات الولي لاتجوز على أهله ، وبالطبع
لاتجوز عليه بدليل أنه مات . من جديد أرادت أمي أن أصحبها
لحضور الجنازة ولكنني رفضت ، وعادت من هناك تحكى عن

النمش الذي طار والمشيرون يلهثون وراهه على شاطئ بحر يوسف
— وماما يا عيني وراه بشهر واحد

وهذه الجنازة حضرتها ، ومن بعيد في آخر البيت لمحت شبيحا
لمرمر ملفوفا في السواد ، تائهة وسط عشرات من النساء التائهات
مثلها في السواد . وبموت خالتي قطعت نهائيا عن أخبار مرمر ،
طول الوقت أتخيلها في تلك السراي الصفراء على بحر يوسف ،
غير عالم أن زوجها قد هاجر بفلوس أبيه الى القاهرة واشترى تلك
الفيلا في المعادي

— يعنى برضه ابو قتب خيره علينا

— إزاي ؟

— إيه لنا على بعض غير كراماته ؟

— أيوه انما أنا اللي خليت محمود يجيبك

— صحيح كنتي دايم بتقري مقالاتي ؟

— ولا واحدة فاتتني

— حبيبتى مرمر

الصوت الغريب الذي كلمني في التليفون يقول أنه محمود جادالله
— موش عارف بلدياتك يا أخى ؟ موش عارف جوز بنت
خالتك ؟

ودعوة منه إلى فنجان شاي في المعادي ، وعبر فنجان الشاي
واجهت أكبر شنب رأيته في حياتي . كتلة خرافية من الشعر الكثيف
الأسود تلمى شفته العليا تماما ، وشعرات منها تقرب إلى ما بين
الشفقتين فيدفعها بطرف لسان أحمر . تندة عجبية تتدلى وسط وجهه
الأسمر المستدير ، فوق الرقبة السميقة والكتفين العريضين للرجل
الذي كان رياضيا قبل أن يترهل

— طبعا سيادتك فاكرا المرحوم والدي ...

— إلا دي ! هو والد سيادتك من الشخصيات اللي تنسى ؟

كم قنبا يقابل المرء في حياته ؟

— وطبعا سمعت عن الخوارق اللي كان يعملها ، ولا سيادتك

ما تؤمنش بالحاجات دي ؟

— إزاي بقى !

كنت فيما مضى أحب أن أتجادل في تلك الأمور قبل أن أكتشف

عقم الجدل ، ثم اننى بالطبع لم أحضر الى المعادى لكى أتجادل

— من كام شهر كدة جاني في المنام

ولا بد أنه كان يلبس أبيض في أبيض

— قال لي يا محمود يا بنى ، إنت موش تعرف تكتب ؟ قلت له

آه . قال لي طب ليه ماتكتبش كتاب عن أبوك ؟ أنا طبعا ماليش قوى

في الكتابة لكن ماجتتش ازعله . عنها وقعدت كتبت كام ورقة كده

أحب آخذ فيهم رأى سيادتك ...

وفتح دوسيا كبيرا أخرج منه رزمة أوراق وهو يتنحج ويترد

بلسانه شعرة

— على فكرة بقى انا باتابع مقالات سيادتك ومعجب بأسلوبك

جدا . إيه رأيك في عنوان « المعجزة في ضوء العلم الحديث » ؟

— عظيم جدا

— الأسلوب طبعا موش ممتاز قوى انما البركة في سيادتك . لو

تعاون كده في الصياغة بس نحافظ على روح الكتاب . وطبعا

الشغل شغل ، يعنى انا موش ح اضيع وقت سيادتك هدر

كلا لن يضيع وقتى هدرا ، مادام قلبى دق على نقرات كعب

الخداء المقرب من الباب ، وقبل أن تدخل مرمم سبقتها موجة عطر .

حلم جديد دخل من الباب ، العذراء ذات الشعر المتهدل صارت تحفة

فاضجة . شعرها ياخسارة قص على الموضة ولكنه ما برح بروازا .

أسود حول صورة من الجمال الأبيض الدافئ . وجهها استظال

بعض الشيء فازداد فتنة ، يخطى وئيدة تتقدم نحوى في سحابة

العطر . بابتسامة صغيرة صافحتنى وبضغطة متحفظة

— أهلا أستاذ حمادة !

— أهلا أميرة هانم !

صوتها نضج مثلها واكتسب رنة عميقة مطربة . لم أر عينها بسبب

تلك النظارة السوداء القائمة ، ولا بد أنها تعمدت أن لا أرى

عينها .

— على فكرة بنت خالتك هي اللي فكرتني استعين بيك ، واهه

يبقى زيتنا في دقيقنا

لا حرمنى الله من بنت خالتي ، وقفت تتلفت حولها كمن يبحث

عن شيء ما ، على ساقين ناضجتين تدور وتستعرض الحجرة من

خلف النظارة السوداء ، فلما يثست من العثور على حاجتها خرجت

في صمت . توقعت أن تعود ولكنها لم تفعل ، كأنها مادخلت

وما صافحتنى إلا كشيء عارض في رحلتها الباحثة . تريد أن تعاقبنى

وهذا أقل ما أستحق من عقاب

— المهم تقراه الأول وتقول لي رأيك بصراحة

فلو أننى فعلت لطردي من بيته طردا ، المحاولة الرقيقة من رجل

ربع مثقف لتسخير مفاهيم الذرة والإشعاع والنسبية في إثبات أن

الشيخ جاد الله يمكن أن يوجد في الوقت نفسه في أفريقيا وآسيا ،

واللمسة المباركة التي هي أفعال في شفاء الرمد من الترامايسين . لو

أننى صارحته برأى في كتابه لما رأيت مرمم ثانية ، لكن مرمم تستحق

كذبة صغيرة

— أنا برضه قلت انه ج يعجبك !

وتنحج ونبذ شعرة ، ومن جديد دق قلبي على فقرات كعب
الحذاء المقرب . بالنظارة السوداء تسير في سحابة العطر ، حيتني
بإيماءة وجلست غير بعيد تعالج خيوط التريكو
— فيه ناس تقول دي خرافات ، لأنهم ماشفوهاش زي احنا
ماشفناها

والله ما رأيته أكثر من ذلك العفريت في الحمام ، ولكن ما باليد
حيلة

— معظم الناس عايشة بالعقلية الميكانيكية بتاعة القرن التاسع
عشر
— فعلا

ساق على ساق في شراب كاروهات أسود وملت يدها فغطت
بذيل الفستان ركبتها
— تحطيم الذرة ده إيه .. موش معجزة ؟
— فعلا .

ساق السيدة الناضجة التي كانت ساق قطة في شبشب أحمر .
تري ماذا يكون شعورها عندما ينفرش ذلك الشنب الفذ على شفيتها
في لحظة حب ؟

— والراديو اللي يسمعك من آخر الدنيا في التو واللحظة ؟
— فعلا

— والتلفزيون والتلغراف واللاسلكي ، موش كل دي معجزات ؟
— فعلا .

تراقبني في أغلب الظن من خلف نظارتها مرهفة الأذنين للحديث
تحاول أن تتأكد من موقعي . هل كنت أطعم نفسي أم رأيت حقا

لمسة اجباط من شفيتها المطبقتين على صبر طويل ؟
— إيه الفرق بين صورة تنقل لك في التلفزيون ، وبين روح تنقل
من مصر والحجاز ؟

— فعلا

— دي معجزة ودي معجزة

— فعلا

وهنا في هذه الشرفة غلظت مرمر صوتها لتقلدني

— فعلا ! فعلا ! دنت يا بنى منافق بشكل !

أنا نفسي كرهت نفسي ولكن ما باليد حيلة

— بس أرجوك وانت بتعيد الكتابة تحافظ على روح الكتاب .

ويا سلام لو تقرا لي إللى بتكتبه أول بأول

ولذلك قبلت الصفة ، وجلس أبو شنب يقرأ ماكتب ويهز رأسه

باعتجاب . سحابة عطرها تسكرني ، ألن تخلع هذه النظارة السوداء

أبدا ؟

— حلو ! عفارم !

لكنه مايرح أن توقف بعد صفحتين وبدا عليه الامتعاض ، أرعش

أصابع يده اليمنى دلالة اهتزاز شيء ما .

— متهياً لي الحنة دي كده يعني .. موش ماشية مع روح الكتاب

عدة نقاط لا تسير مع روح الكتاب ، دمجتها قدر استطاعتي

في روحه وعدت

في حديقة الفيلا جلسنا ذات صباح مشرق بالقرب من شجرة

فتنة . أبو شنب يقرأ ومرمر هلت والحمد لله بغير نظارة سوداء ،

تقدمت نحو الشجرة المرصعة بسئات الزهور الكروية الصفراء .

ما أحلى العيون السود وهي توميء نحوي ، فوق بشير لابتسام

ابتسامة عسل . حبيتي الحلوة سامحتني ، غفرت ذنبي وأهدتني
فتنائة

— أنا طبعا ماليش في الكتابة ، بس عايز احافظ على روح الكتاب
ورن جرس التليفون داخل المنزل وناداه الخادم فقام ، لأول مرة
أجدني مع الحبيبة وحدي . برآتها صادت شعاعا من الشمس
وسلطته على زهرة صفراء من شجرة الفتنة

— واحشاني قوى يا أميرة

فلم تجب ، مشغولة بأجالة الشعاع الدافئ على الزهور

— عاوز اشوفك يا أميرة

فلم تجب ولم تبسم ، عابسة أدارات الشعاع وسلطته على وجهي

— لازم تتقابل يا مرمر !

فلم تجب ولم تبسم ، تجيل الشعاع الساخن على وجهي باحثة

عن عيني

— أرجوكي يا مرمر !

فوضعت المرأة وراحت تتأملني طويلا ، خيل الى أتى رأيت في

العيون السود نظرة ازدراء

— بايخة قوى !

لم تقل شيئا غير ذلك ونهضت

— مرمر !

وأشاحت بوجهها وأولتني ظهرها لتدخل البيت ، رأيتها تصعد

السلمتين من خلال خزي اليم

— تساهل !

هنا في الشرفة في مثل هذا الغروب ، والشجرتان محمرتان فيما

تبقى من ضوء الشفق

العسل على شفيتها . قطفت عدة زهرات ورفعت واحدة إلى الأنف
الجميل تشمها ، ثم بسطت نحوي يدا عليها كبشة زهور ، بإصبعين
سعيدين بلامسة راحتها أخذت واحدة ، نهلت من عطرها رافعا
وجهي في امتنان نحو العيون السود

تبسمت لها فحادت عني ببصرها ، ثم ذهبت غير بعيد وانخفضت
تفرش العشب الأخضر ، مشية الساقين تحتها معتمدة على الأرض
بيدها اليسرى

— متيألى ان الحنة دي برضه كده ..

وأرعى أصابعه ونبذ شعرة

— موش ماشية مع روح الكتاب ؟

— شوية ، معاك قلم ؟

بالقلم شطب فقرة كاملة فيما يشبه القرف ، ومرمر تختلس
النظر إلى لترى وقع ذلك التصرف على . ولا يهيك يا مرمر ، في
سبيلك فليشطب كل ما كتبت . وفي يدها مرآة صغيرة رفعتها أمام
وجهها وحكت بظفرها شيئا شاب وجنتها

— يعنى مثلا لو نقول بدل كده ..

لكنه لم يقل شيئا ، والقلم ظل في يده جامدا

— تقول إيه ؟

— صبرك على شوية

— على أقل من مهلك

جا حظ العينين من جهد التفكير ، يحتاج فيما يبدو إلى إحدى
معجزات أبيه لكي يكتب سطرًا . ومرمر نظرت إلى الكاتب المحتاس
ثم إلى ، لأول مرة قابلتني العيون السود بنظرة طويلة فيها ذكريات .
فلما ابتسمت لها تبسمت ، غاصت زاويتا فمها في وجنتيها في أحلى

— ودي تيجي إيه جنب اللي عملته في ؟!

— يعني صحيح ماكتيش ح تقابليني ؟

— طبعا لا !

— اخص عليكى !

— لا يا شيخ !

— يبقى راخر ابو شنب خيره علينا

— بلاش ابو شنب دى !

— آل روح الكتاب آل ... ياخى طلعت روحك !

— ٤ —

مطرب صوت البنت التي قالت في التليفون أن اسمها فائزة ، وأن
أميرة عندها وتريد منى أن أزورها هناك . لم أعرف لماذا لا تكلمنى
أميرة بنفسها ، لأننى لم أعرف أنها تكره البكاء في التليفونات
البنت المحندقة السمراء ذات العيون الخضراء ، فتحت لى باب
الشقة في مصر الجديدة وقادتنى إلى الصالون حيث جلست مرمر
مقروحة العينين . أرادت أن تحكى لى بنفسها فاخنتق صوتها
بالبكاء

— إحكى له اتنى يا فينى !

فتنهدت فينى وبسطت حولها راحتين حائرتين

— الأستاذ جاد الله جوزها ...

— ماله ؟

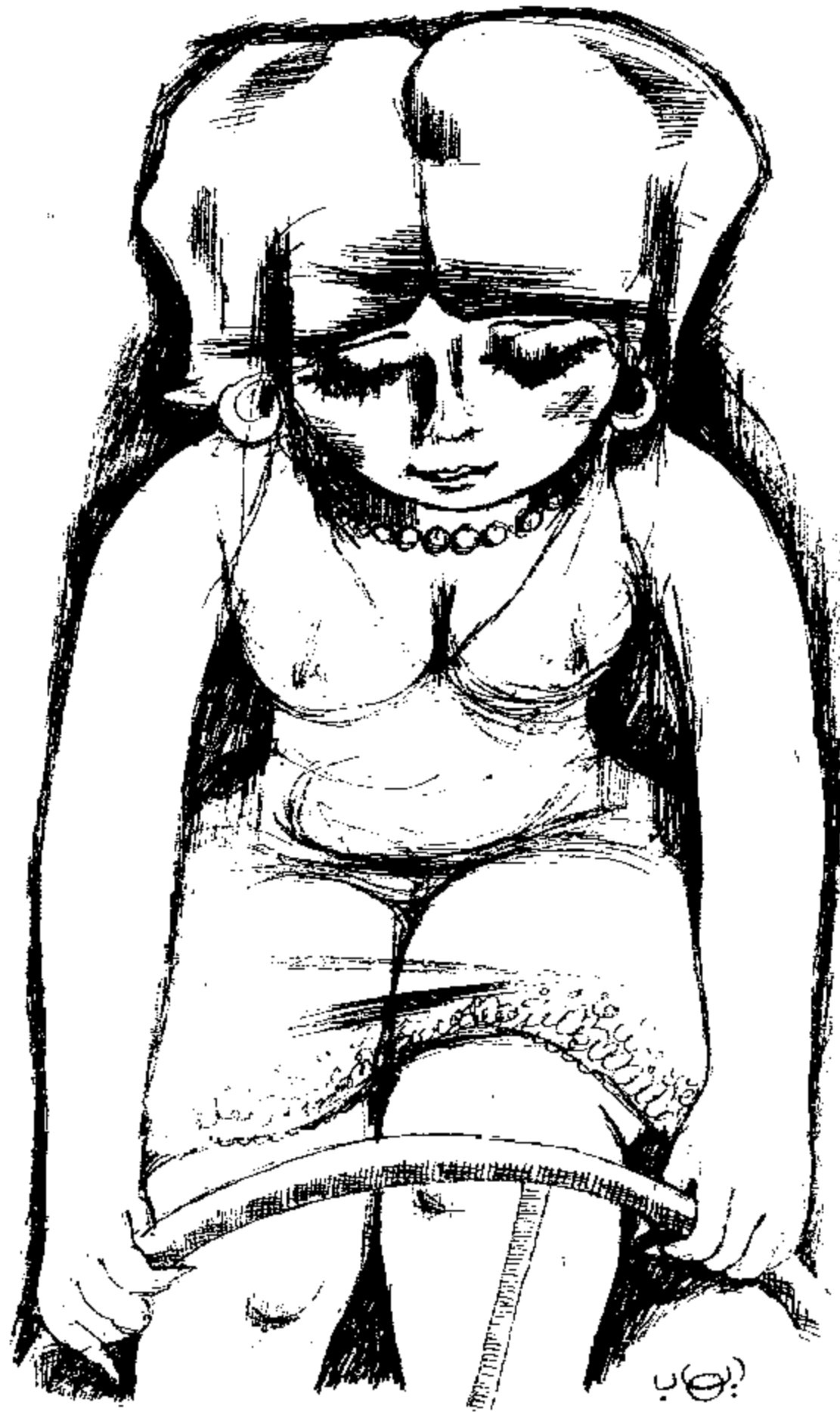
— متجوز عليها !

— إيه !

فاتورة بمائتى جنيه في درج المكتب الذى نسى مفتاحه ، ثم
لمطبخ عصرى يشحن باسمه إلى شقة في الدقى . وقال بواب العمارة
أنه يسكن تلك الشقة منذ سنة كاملة ويظن أنه عريس جديد
— سنة بحالها ابن الكلب ولا أنادارية !

وفى عين مرمر اليسرى من خلال دموعها رأيت ماخيل إلى أنه حول





خفيف تراءى لحظة ثم اختفى
— آل إليه عايز عيل .. مع إن كل الدكاترة قالوا العيب موش
من مرمر
— كل يوم والثاني يقول لى بيت فى البلد وانا اصدقه زى
الحمارة !
وأمام دموع مرمر دهنتى عاصفة من العواطف المتناقضة ، الرثاء
لها والحزن من أجلها وفرحة أنانية يشمل يمكن الآن أن يجتمع
— طلقه حالا ! ماتقديش معاه يوم واحد !
— ماقلت له مارضييش
وغلظت مرمر صوتها وسط دموعها تقلده
— إحنا ما عندناش طلاق ! أنا راجل حر ولى فى الشرع اربعة !
ولا بد أنه طرد بلسانه شعرة
— لازم تشوف لنا محامى كويس
فلما عدت بفتوى المحامى كانت مرمر لاتزال تبكى ، وزاد من
بكائها ما قاله المحامى من أن زوجها فعلا رجل حر وله فى الشرع أربع
زوجات . فاذا هى أصرت على الشوز فمن حقه أن يستنح عن الإنفاق
عليها . وفكرة خطرت للسراء المحنقة ذات العيون الخضرة
— إرجعى له واقعدى ناكفى فيه لغاية ما يطلقك ، ما فيش غير
كده !
وأيدت أنا الفكرة فنفتحت مرمر من أنفها ساخرة
— ده حد يعرف يناكفه ؟ ده يناكف بلد !
ورفعت يدها إلى كتفها وهى تفكر ، لحظة تردد ثم أزاحت كم
الفيستان عن كدمة زرقاء . إلى تلك الكدمة حملقت أنا وفيفى نم
هتقنا معا

– يضربك ؟

فضحكك مرمر ضحكة عصبية صغيرة

– ياريت .. يعضني !

وليس ذلك في أوقات الشجار وإنما في أوقات الحب

– ولو بشويش كان معلش ، إلا ابن الكلب بعزم مافيه !

فأشاحت فيني بوجه تورد وغطت بيدها ضحكة . ومن جديد

رأيت ذلك الحول الخفيف يتلاعب في عين مرمر اليسرى ، ورفعت

إصبعها تدعكها

– العياط وجع عنيه الله يخرب بيته !

وعادت فيني تلح بفكرتها

– إسمعي كلامي أنا ، إرجعي له وافضلي وراه لغاية ما يطلقك

فلما نقل التلفزيون صوتها بعد أيام سمعت فيه نبرة يأس

– آديني رجعت ياسيدي

– وكلمتيه تاني في الطلاق ؟

– مافيش فائدة ، راسه وألف سيف مافيش طلاق

– ولا دكها ؟

– ولا دكها ؟

– الله يخرب بيته !

– غ على كل حال أنا خلاص

– خلاص ايه ؟

– نطظ فيه ! عنه ماطلقها ! وعنه ماطلقني ! أنا ح اموت نفسي

عشانه ؟

– مرمر !

– همم ؟

– تتقابل إمتي ؟

وأصرت مرمر على أن تتولى قيادة سيارتي بنفسها ، في ذلك

الصباح المشرق في طريقنا الى الهرم

– خليني اسوق من نفسي ! ابن الكلب ما بيخليش اسوق إلا

بطلوع الروح !

إلى بروفيها الجميل جلست أنظر ، والإيقاع الفاتن لحركة

الركبتين وهي تدوس الفرملة والدبرياج

– ماتبصليش كده !

– ليه ؟

– بتلخمني ؟

– ماعاش اللي يلخمنك

وعلى الطريق المرتفع نحو الهرم الأكبر سمعت من سكسكة الموتور

مادلني على أن أبا شنب معذور من الخوف من قيادتها . وشريط

الأسفلت اللامع الذي يتلوى كعبان أسود وسط صفرة الصحراء

نحو صحارى سیتی . ويالها من فرحة وحشية غمرتني وأنا أسحب

لها الكرسي لكي تجلس عليه ، في ذلك الركن البعيد من الكازينو

الهاديء . رعدة جامحة في صدري كان يجب أن أغرقها في زجاجة

بيرة ، ونظرة شعور بالجرم في عيون مرمر حين أتى الجرسون

بإتسامته الخيثة . ملأت لها الكوب بالسائل الكهرماني الفائر ،

شفطت منه شفطة وارتعدت

– ساقعة قوي ! وأصلي ماباشريش

– خالص ؟

– مرة ولا اتنين عند فيني

لكنتي جرعت كوبي وطلبت زجاجة أخرى ، ورأيت مرمر

ترقبني ساخرة

— انما احنا اتغيرنا قوى !

— يعنى إيه ؟

— إتمدنا وبنشرب بييرة ! موش حرام البييرة دى ؟

— أما تكون سخنة بس ! وماتسيش ان الجنة فيها نهر نبيت

والواحد لازم يتمرن له !

فضحكت وهمت بأن تقول شيئاً أسعدنى أنها عدلت عنه .

وتنهلت وسرحت يبصرها إلى الصحراء الصفراء المترامية ، تابعت

نظرتها إلى تلين بعينين مستديرتين كنهدي عذراء

— يا بختك يافينى !

— على إيه ؟

— طلقت جوزها من سنتين !

— عقبالنا يارب !

ومع الشراب توردد وجهها وراحت تثرثر ، معتمدة بكوعها على

المائدة والكوب مرفوع فى يدها يتمايل بجانب شعرها الأسود .

تتمنى أن تكون مثل فيفى بنت جيرانهم فى المعادى ، صارت مضيعة

جوية فهجرت بيت أهلها لتقيم وحدها فى مصر الجديدة قرب المطار

— يوم باريس ويوم لندن ويوم روما ، باحسدها بشكل !

وسرحت يبصرها فى الصحراء من جديد ، ثم نظرت إلى بمكر

وقد ذكرت شيئاً

— إنما انت ليه ماتجوزتش لحد دلوقت ؟

— أتجوز ليه ؟

— الناس كلها بتتجوز ليه ؟

— عشان تجيب عيال تستخبي ورا الصحارة !

فضحكت مرمر ، وناظرا فى العيون السود قرأت مئات الذكريات

التي تسيت أن أثيرها ، لكننى خفت أن أصل إلى البنت التي قصدت

إلى الباب بشنطة السفر . ونظرت مرمر فى ساعتها وشعور الحبرة

بالفسحة التي انتهت ، فى السيارة التي قدتها بسرعة السلحفاة على

الثعبان الأسود ، وشوق أليم فى نفسى إلى البنت التي لاذت بآخر

المقعد بعيدا عنى

— مرمر !

— همم ؟

— قربي منى

فطرقت بلسانها رافضة ، وكان صوتى لزجا وأنا أكرر الرجاء

— والنبي يامرمر ، قربي نسوق سوا

ودق قلبى كالطبل على صوت حفيف فستانها وهي تزحف نحوى ،

ومدت إصبعين أمسكت بهما حافة الدركيون

— كويس ؟

كنفها يلامس كنفى وعطرها يملأ روحي ، تجاسرت ورفعت ذراعى

فوضعت على المسند خلف كنفها . لكن شيئاً عجيباً شل يدي ،

كافحت طويلاً حتى أرغمت إصبعاً على أن يمس برفق كنفها البعيد .

لكننى فجأة شعرت بأنفاسها على جانب وجهى ، متسارعة الأنفاس

أدارت وجهها نحوى . وكرجل فى حلم شعرت بشفتيها على خدى ،

قبلات متلاحقة غمرت بها وجهى . فوالله يامرمر ما أعرف كيف نجحت

فى ركن السيارة على جانب الطريق ، والجسم العزيز الذى ضمت

فيه أمل عمر . نهلت من شفتيها ومن غير عنقها ، ومن خلال شعرها

الأسود رأيت عند التلال البعيدة ما يشبه أثنى أسطورية متمددة .

لئن الله تلك الضحكات التي جلجلت فى سيارة عابرة ، تركتني مرمر

، وعادت إلى الركن البعيد مضطربة الصدر محتقنة الوجه ، بسرعة
غطت عينيها بالنظارة السوداء ! لم تنبس بكلمة طوال الطريق ، إلى
أن رأته أحيده بالسيارة في الشارع الضيق على مشارف الحقول
- إيه على فين؟

نبرة قلقة في صوتها لكنني أجبتها بإبتسامة حب صامته
- على فين صحيح؟

وكان باب الحديقة مفتوحا فدخلت ، ركنت السيارة هنا أمام هذه
الشرفة

- إيه ده؟

- بيتنا

- وجاي هنا ليه؟

نبرة القلق صارت نبرة خوف واضح

- موش عايزة تشوفي بيت ابن خالتك؟

- لا موش عايزة ! روحنى حالا !

- دقيقة واحدة بس

- حمادة ! روحنى بأقول لك

نبرة الخوف مازجتها رنة غضب ولكنني تماسكت ، نزلت وفتحت
لها الباب

- عشان خاطرى . دقيقة واحدة

وجذبتها برفق من يدها فنزلت متأففة محتقنة الوجه ، تعثرت على
السلمتين المؤديتين إلى الباب . وفي الصلاة وقفت متصلبة تجيل
حولها نظرة سريعة

- خلاص شفته ، يا الله بقى

- مرمر !

وبرفق دفعتها لتجلس على الكنبه وجلست بجانبها
- مرمر !

وكمطشان عثر على الماء بحثت عن شفيتها ، دفعتنى وقاومتنى
ولكننى كنت أقوى . وفجأة وجدتها ترتعد بين ذراعى ، وزفرات
أليمة تلاحقت من صدرها وهى ترفع يديها لتخفى بهما دموعهما
- مرمر !

دموع غزيرة تسيل تحت يديها المرتعدتين ، وزفرات جريئة ملأتنى
خزيًا فابتعدت عنها

- آسف يا مرمر . حقك على

شيئا فشيئا هدأت زفراتها ، وفي صمت مسحت الدموع عن
عينيها وغطتهما بالنظارة السوداء . وكانت حزينة جدا رحلة العودة
إلى المعادى حيث وقفت لأنزلها في ذلك الشارع الجانبى الهادىء

- مرمر ، ماتزعليش منى

- موش زعلانة ولا حاجة

بصوت متحفظ وهى تنزل ، وبدون أن تلتفت إلى الوراء مشت
مبتعدة تحت صف من الأشجار ، منتصبه القامة مرفوعة الرأس في
كبرياء جريئة ، التوى كعب حذائها مرة وهى تسير . فلعلت نفسى
على جلافتى وذكرت فيلما عن فان جوخ ، بنفس الجلالة هاجم
حييته وطفشها منه ، لو أن موى موسى لقطعت مثله أذنى



النفس الشقية في البداية بأنها حجة لتحضر عندي ، لكنني تبينت أنها تريد أن تدرس حقا . ساعات متوالية من العمل لا تعب أبدا ، أحيانا هنا وأحيانا عند فيفي . معي بعقلها وليس ثمة ثغرة أنفذ منها الى قلبها ، بسرعة مذهلة تلتهم الدروس وتتقدم

— مش كفاية بقي يا مرمر ؟

— إشتغل وانت ساكت ، آه !

ونظرة في عينيها ذات معنى خاص تسكتني ، ألسنت أنا المسئول عن حرمانها من دراستها ؟

— نفسي مرة آخذ أكسيلنت !

لأنها احتاجت الى أكثر من شهر لتأخذ درجة جيد ، ثم بدأت تأخذ جيد جيدا . هنا على هذه الكنبه التي أبكىتها عليها بجلافتي ، جلست عشرات الساعات أعلمها . دائما في الصباح عندي وأحيانا في المساء عند فيفي ، ولم أنجح قط في اغرائها بشفطة بيرة واحدة . لكنها ذات ليلة دخلت على بلا موعد سابق وفي العيون السود نظرة اتصار ساحق . من حقيبتها أخرجت كراسه فتحتها وضربت عليها بظهر يدها في كبرياء

— إقرا يا أستاذ !

لأول مرة تنازلت مسز كولنز وخطت في نهاية موضوع الإنشاء تلك الكلمة السحرية إكسيلنت

— والنبي انت نفسك ماتقدر تاخذها !

وجلست تقرأ لي الموضوع كلمة كلمة ، ثم وضعت الكراسه ورفعت ذراعيها تتمطى

— أما انا بقي سعيدة بشكل !

ومالت برأسها ترمقني بنظرة امتنان

— ٥ —

فكم فرحت يوم رن صوتها في التليفون هادئا طبيعيا وليس فيه كراهية ، بل فيه فرحة زادت من فرحي

— مانفسكش تشتغل مدرس ؟

— مدرس ؟

— آه ، واحدة ست دخلت المدرسة جديد ويلزمها مدرس

— حلوة ؟

— شوفها واحكم بنفسك

هنا وأكداس من الورق على حجرها ، وكتب انجليزية في المحادثة والقواعد وحتى بعض قصائد شكسبير ، برنامج المدرسة الخاصة التي ألحقها بها فيفي لتعلم اللغة وبعد عام كما تزعم تصبح مضيئة مثلها .

— هني ح تتوسط لي عندها في الشركة وانت لازم لك معارف

— وجوزك يرضى انك تطيري ؟

— مانا يا خساره موش ح اطير . لازم اقعده مدة مضيفة أرضية

— برضه غريبة انه يرضى

— عني ف عنيه ! لا يطلق مراته ولا يطلقني ولا اشتغل كمان ؟

وكتلميذة صغيرة فتحت الكتب التي بدت لها أشبه بالأغاز ،

وفي العيون السود تصميم رهيب على حلها لغزا لغزا . حدثتني

— مرسى يا حمادة . تعبتك معايا قوى

فتنهلت

— تعبك راحة !

فابتسمت وحادت يبصرها نحو البار

— ويسكى ده ولا غلطانة ؟

— ويسكى

— عمرى مادقته

فخفق قلبى

— تدوقى ؟

— شفقة صغيره كده

فصبيت الكأسين بيد ترتعد من توقع شىء جميل ، ورشفت

مرمر رشفة وتأفف

— مرقوى !

— الترامايسين راخر م

ونهضت ممرم بالكأس وقصدت إلى رفوف الكتب

— يابن الإيه ! قرئت كل دول ؟

— تقريبا

— يابختك !

وبدا عليها أنها تريد أن تقول الشىء الذى أرجو ألا تقواه .

وتقيق ضفدعة فى الحديقة فقصدت إلى النافذة تطل عليها ، ثم

استدارت ضاحكة وراحت تقلد صوت الضفدعة .

— ولو انه مرقوى لكن لذيذ ! إملالى تانى !

ملأت لها وفى صدرى يعربد أمل وحشى ، ومعتمدة بكوعها على

ركبتها رفعت الكوب يتمايل بجانب عينها التى اتشت .

— إكسلنت يابنى ، إكسلنت !

ونظرت إلى البيك آب عن يسارى فأشارت إليه

— ما تسمعنا حاجة

لحن راقص نهضت أميرة بالكأس وشرعت تتمايل عليه ، مبتعدة

عنى حتى وصلت إلى ما وراء البار . وهناك فى رف سفلى منه رأت

شيئا سرها

— عسل ! عسل !

وانخفضت وراء البار تلتقط البرطمان ، انتظرت أن تبرز فلم

تفعل

— ماتيجى تاكل !

فنهضت وقصدت إليها حيث تربعت على الأرض وراء البار ،

البرطمان مفتوح وهى تدس فيه إصبعها ثم تخرجه لتلققه ، منظر

أثار فى نفسى ألف موجة حب

— ممرم !

— تدوق ؟

ورفعت نحوى إصبعها بلته بالعسل فذقت العسل وقبلت الإصبع .

وخافق القلب ركعت بجانبها ومددت شفتى أريد قبلة عسل .

— حاسب العسل !

لكننى نلت قبلى وأحطت بذراعى كنتها ، فرحت بذلك الكنف

البعيد الذى وثب إلى أعلا

— عارف احنا عاملين زى إيه ؟

— إيه ؟

— زى عيلين صغيرين مستخيين !

— طب ما هو آه

– فاكر الصحارة ؟

– ولا ضرفة الشيش

– تيجى نستخبى تحت السرير ؟

– يا لله !

وذكرت مرمر شيئاً فضحكت ، أقلت البرطمان ونهضت به

– ماتجيش ورايا . جايه تانى

سمعتها تغادر الصلاة وتقل على بابها ، عجبت أى أمر تدبر مرمر .

هناك جلست كرجل فى حلم ، فقرت على أخشاب الأرض وراء

الباب خوفاً من الحسد . وطرقة على الباب الذى أقلتته فنهضت

وقصدت إليه بخطى نشوى ، فتحتته عن ابتسامة العسل على وجه

مرمر والبرطمان المقل فى يدها

– جامد قوى ! تقدر تفتحه !؟

حبيبتى مرمر ما أحلى قبلات العسل على صوت الصراير فى

ضوء القمر ، هنا حيث جلسنا أمام الشجرتين الحالمتين . ولأن الليلة

كانت حارة أرحت الكأس على ركبتيها العارية فانبسطت

– الله ساقعة وحلوة ! خليها شوية والنبي

ثم أشارت إلى الشجرتين الحالمتين

– حزر الشجرتين دول اسمهم إيه ؟

– غلب حمارى

– واحدة مرمر والثانية حمادة

– عاشت الأسامى

– حزر مين دى ومين دى ؟

– دى مرمر ؟

– لا دى

– ليه ؟

– شكل مرمر

– حمادة يجب مرمر

– ومرمر تحب حمادة

ثم ركزت على عينا قاسية ، عرفت أنها ستقول الشيء الذى
لا أريد أن تقول

– دى عملة تعملها فى يامجرم ؟

فتنهدت فى استسلام .

– تطردنى من بيتكو يادون !؟

– مرمر ! ماتفكرنيش

– تضيع مستقبلى يامجرم ؟

– اشتمينى كمان .

– ياسافل !

– كمان

– يامنحط !

– كمان

– يامجرم !

– قلتها

– عمرى ما ح انساها لك أبدا . عمرى ما ح اسامحك !

لكنها سامحتنى ، هنا حيث ضممتها وثلت من الكتف البعيد

وثبة . فى الضوء الخافت أمام الشجرتين الحالمتين ، قوسى نصر حول

قمة الهرم الشامخ

— موش عارفة البتاع ده ليه بيزعلنى

— حتى بعد إكسلنت ؟

— نفسى ابقى سعيدة كده زيك

— إتنى موش سعيدة ؟

— موش زيك طبعا . إنت موش متجوز

— ح تعملى إيه أكثر من انك تقولى له طلقنى ؟

فتصعبت بمرارة وشرد بصرها إلى مربع النافذة المظلم . ثم

تهددت ولوحت بيدها فى استخفاف مصطنع

— يا الله !

ونفضت إلى برطمان العسل الذى تركه هناك فوق البار ،

دست فيه إصبعها ثم أخرجه فلعقته . وفجأة ذكرت شيئا فضحكت

— إلا لو نبص نلاقه داخل علينا دلوقت !

— أبوشنب ؟

— إف ! بطل الكلمة دى

— تفكر يعمل ايه لو شافنا هنا ؟

— غالبا بعضنا

فضحكت مرمر ومددت أنا يدي فأدرت الإسطوانة من جديد

— عارف يعمل ايه ؟

— همهم ؟

— يجبسنا !

— واحنا بنعمل حاجة ؟

— هو كده غاوى حبس . لغاية دلوقت حابس اتنين خدامين

كانوا عندنا . ياسيدى الحاجة اتسرقت وخلص ، لكن مافيش فائدة

الطرقات الجلييلة المنذرة بشيء يخلق

- ٦ -

من وحى السماء هذا الأليجريتو من سابعة يتهوفن ، كلمة من

الله على لسان نبي النعم . الطرقات الجلييلة المنذرة بشيء يخلق ،

نبته نادرة سوف تنبت من جوف الأرض

— حقيقى حلو قوى

— طول عمرى نفسى اسمعه معاكى

هنا حيث جلسنا عقب أحد الدروس وهى لاتزال مرمر . زواج

مقدس بين لحنين وإيقاعين ، يتداخلان ويتشابكان ويتجاوبان

ويعتضران من لقاءهما ألف نشوة . وهنا — هنا على هذه الكنية

رأيت النغم منعكس في عيون مرمر ، بين النور والظلال حيث ترقص

نشوة الحياة في العيون السود

— أحبك يا مرمر ، أحبك !

— حبيبي

— تحبيني ؟

— قوى . قوى

العاطفة المشبوبة السائلة من الأوتار ، متدفقة إلى ذروة في

السماء من المتعة الخالدة . ثم تصمت الأوتار لتتطق آلات النفخ

باللحن المنفرد ، شيء كالأنين في ذلك اللحن الذى ولد آخر الأمر

من الزواج المقدس



- ماتيجى تقعدى
فأنت وجلست مفكرة
— إحنا لو مسكونا تتحبس ؟
— يتوقف على مسكونا بنعمل ايه
— كام سنة ؟
— مله لا تزيد على سنتين مادة ٢٧٤ معدلة
فضحكت
— إنت حافظ قانون كمان
— الواحد قبل مايجب لازم يدرس قانون عقوبات ! واسكتى
بقى خلىنا نسع
فأنصتت حينا إلى الزواج المقدس بين لحنين وإيقاعين ثم
توترت فجأة
— إيه ده ؟
— إيه ؟
مرهفة السمع أشارت نحو مربع النافذة المظلم
— سامع حاجة ؟
صوت صفير الصراصير فى ليل الهرم
— لا ، صوت حركة
— يمكن كلب ولا حاجة
— قوم شوف والنبي
— ماتبقيش خوافة
— قوم عشان خاطرى
لكننى لم أكن بحاجة لأن أقوم ، بسبب ذلك الشيء الغريب الذى
نراعى فجأة فوق حافة النافذة أمامنا . شعر أسود على رأس رجل ،

ثم جبينه الأسمر ثم عيناه ، ثم أنفه وتحت الأنف أكبر شنب رأيته في حياتي . عيناه السوداوان حين رأنا عينا رجل مجنون ، وبطرف لسانه نبد شعرة . شهقت مرمر وتجمدت أنا ، ساورني شعور رجل ينظر إلى أرض الطريق وهو يهوى نحرها من نافذة الطابق العاشر . فهي إحدى غرائب النفس البشرية ، أنني أستطيع اليوم أن أسترجع المنظر بهذا الهدوء ، كاللئوخي الذي يقول أنه في سنة كذا قامت الحرب الفلانية وقتل فيها مليون إنسان

قفزة سريعة رفعت أبا شنب فوق النافذة ، وأخرى أنزلته على أرض الصالة هنا . هنا عند النافذة وقف أمامنا يلهث ويفرقنا بنظرات مسمومة من الحقد الأسود ، لا يقول شيئا ولكنه في صمته يقول كل شيء . كقطعة من الخشب جلست مرمر بجانبى ، لمحت بطرف عيني يدها وقد تقبضت ترتعد . بل يخيل إلى أنني سمعت صوت اصطكاك أسنانها ، ولا أدري لماذا ظللنا جالسين . في صمت أبله ننظر إلى أبي شنب حيث وقف أمامنا كالتمثال ، على صوت اللحنين المتجاوبين اللذين يعتصران من لقاءهما ألف نشوة . وفجأة تحرك التمثال الأسمر ، يبطء أول الأمر ثم بسرعة - بسرعة البرق رأيته ينقض على مرمر ويجذبها من صدر فستانها ، خلعها عن هذه الكنبه خلعا . صفعات كالمنطر ولكمات تنهال عليها ، مرمر تصرخ صرخات مكتومة كالعواء وأنا جالس أتفرج . لا بد أن طنا على الأقل من الأدرينالين تدفق في عروقي قبل أن أرتفع الى مستوى الموقف . فوثبت إلى الرجل الأسمر وجذبتة من باقة جاكته ، طوخته بكل قوتي فترنج وارتطم بالنافذة التي دخل منها . مكث هناك لحظة ثم انقض على وأطبق باليدين على صدر جاكتي ، عيناه في عيني وشبهه يكاد يلامس وجهي . يلهث ويتأملني بنظرة

حقد رهيب ، فاغرا شفثيه عن أسنان مطبقة لوحش كاسر . وفجأة رفع قبضته اليمنى ليصوب نحو وجهي لكمة ، حاولت أن أتخاشها بساعدي ولكنها كانت لكمة ثور . مثل كتلة من الصخر هوت قبضته على فكي حاملة كل ما فيه من حقد وغل ، أظلمت الدنيا أمام عيني ووجدتني أهوى على الركبتين . ومن خلال غشاوة على بصرى رأيته يستعد لرفصة بالجداء فأسرعت بتغطية وجهي لأتلقاها على ساعدي . لكن الصدمة زلزلتني وسقطت على الأرض ، وكرجل في كابوس راقبت كل ماجرى بعد ذلك في الصالة .

من خلال تلك الغشاوة رأيت مرمر شبعا هلاميا أبيض يحتمى بعيدا خلف البار ، وأبو شنب هو الآخر مجرد شبح أسود . وقف حينما يفترس زوجته بالنظر ثم وصفها بكلمة بذئية . وتلفت حوله ثم اتجه إلى هذا التليفون هناك وتناول الدفتر يبحث عن رقم ما . خرفشة الورق وصلتنى عالية غريبة ، وصوت الصراخ مع العاطفة المشبوبة المتدفقة من الأوتار . ووجد الشبح الأسود طلبه فاتجه إلى التليفون ورفع السماعة ، لا أدري لماذا بدت لي كل حركاته ببطيئة لزجة كأنها فيلم بالعرض البطيء

- آلو ، قسم الهرم ؟ أفندم ؟ متأسف

وصوته أيضا رن في أذني بعيدا مجوفا مثل رجح الصدى ، أمجنون هو حتى يثير فضيحة ؟ فينما هو يطلب الرقم من جديد عاد يفترس بالنظر مرمر

- في السجن يا ... !

ثم التفت نحوي أنا

- في السجن يا ابن الكلب !

فعراني ما يصيب الرجل في الكابوس ، من رغبة رهيبية في النهوض

وعجز اليم عنه

— في السجن يا أوباش ! يا غجر ! يا لامة !

ورفع السماعة للمرة الثالثة .

— آلو ، قسم الهرم ؟ حضرة المأمور موجود ؟ يوسف جاد الله .

فدهمني إحساس رهيب بالضياح ، ودوت في أذني صرخة

ضارعة من مرمر .

— محمود ! أبوس إيدك يا محمود !

صوتها متهدج يقطر ذلة ورعبا

— محمود ! محمود !

— آلو ؟ طيب ، أنا معاك

وخيم صمت عميق إلا من صوت الصغير ، وأنين بعيد للحن الذي

ولد آخر الأمر من الزواج المقدس . وهناك وراء البار رأيت الشبح

الأزرق المرتعش يمد يده نحو برطمان العسل ، يد مترددة مالبت

أن أطبقت على البرطمان . ويبطء كما في العرض البطيء بدأ

البرطمان يرتفع إلى أعلا ، وفجأة طار عبر الصالة وصوت صدمة

شديدة وزجاج يتحطم . ومن خلال الغشاوة على عيني رأيت التسبح

الأسود يرفع يده يتحسس بها رأسه ، وفجأة ترنح واستند على

الحائط . ظل حيناً يترنح ثم أخذ ينزلق نحو الأرض شيئاً فشيئاً ،

مالبت أن تكوم بجانب الحائط كتلة ساكنة سوداء . ومن وراء

البار خرج الشبح الأزرق متسللاً ، تقدم من الكتلة السوداء ووقف

ينظر إليها فاحصاً . صوت لهاث مرمر مع صوت الصغير ، وخرفشة

بعيدة للإبرة على الإسطوانة التي انتهت

- ٧ -

تقول مرمر أنني غبت عن الوعي ساعة ، لكنني لم أعد أصدق

مرمر في كل ما تقول . كرجل يخرج من الظلام من جوف بئر عميق ،

شيئاً فشيئاً زالت الغشاوة عن عيني وبدأت أميز الأشياء . مرمر

متربعة هناك على الأرض بجانب جثة زوجها ، معتمدة بكوعها على

ركبتها وبدقتها على راحتها تصوب إلى الأرض نظرة فارغة . وصوت

خرفشة غريبة تبين لي أنها للإبرة على الإسطوانة التي ما برحت تدور

بلا مناسبة

— مرمر !

فالتفت نحوي في غير اكتراث كأنما كنت نائماً وصحوت ، وفي

عينها اليسرى رأيت ذلك الحول وقد صار سافراً صريحا . شاحبة

الوجه زائفة البصر أشارت نحو زوجها

— باينه مات !

— هه !؟

— قوم انت اتأكد .

فلا بد أنني احتجت إلى طن آخر من الأدرينالين لكي أفض واتجه

إلى الرجل ، بخطوات لزجة فوق العسل المكسوب وشظايا الزجاج

تخرفش تحت حذائي . تحسست نبضه فلم أجده نبضا ، ووضعت

أذني على صدره فلم أسمع لقلبه صوتاً . فلما وضعت مرآة مرمر

أمام أفئه لم نعم ، أى أنه قد مات إذ صح ما أقرؤه عن هذه
الأشياء فى الكتب

— باقول لك مات !

ببساطة وهى ترفع إصبعها تدعك به عينها الحولاء ، وخيم صمت
إلا من صوت الصراخ فى ليل الهرم . وتلك الخرفشة للإبرة على
الإسطوانة لماذا لا يسكتها أحدنا ؟ لماذا وكيف ومتى وأين وإلام
وآلف ألف علامة استفهام تتلاطم فى عقلى ، فنهضت فى صمت
وأقفلت شيش النافذة . شئ واحد وضع فى ذهنى وهو أن مرمر
يجب أن تختفى من هنا بسرعة ، فأى نفع يعود على البشرية من
عقابها على جريمة لم تقصدها ، أو عقابى أنا على جريمة لم
أشترك فيها ؟

— مرمر ! قومي خذي عرييتى وامشى من هنا

فواجهتى بعين حولاء وبلهاء أيضا

— أروح فىن ؟

— عند فىنى

— أعمل إيه ؟

— تستخبي

— من إيه ؟

— اللى يقتل الناس يستخبي من مين ؟

— ونا قتلته بكيفى ؟

— مرمر ! قومي حالا ، ماتضيعيش الوقت .

— وانت ح تعمل إيه ؟

— لسه موش عارف

— واشمعنى عرييتك ؟

— مرمر ! بلاش دوشة !

لكنها ظلت واقفة تحمق إلى بأبله عين حولاء ، لم تتحرك إلا
عندما دفعتها إلى الباب دفعا . خرجت وسارت خطوتين ثم ارتدت
وقد ذكرت أمرا

— طب اسمع !

— أفندم .

— ماتساش تشتري برطمان تانى !

— هه ؟!

فبدا عليها أنها تستهجن بطئى فى الفهم ، وأشارت إلى الزجاج
المعثر على الأرض

— بدل اللى انكسر ده !

فندت منى ضحكة وحسدتها على هذه الروح الفكاهية العالية
التي تقابل بها الموقف . لكنها فيما يبدو لم تكن تنكت بدليل أنها
لم تضحك ، وفى صمت خرجت وتركتنى مع خرفشة الإبرة على
الإسطوانة التي اتتهت . برطمان غسل ثان ؟! أفلا يكفيننا كل هذا
العسل الذى يغطى أرضنا ؟ سأتعب قطعا فى مسح هذه الأرض ،
وسماعة التليفون الساقطة لماذا لم تردها مرمر لمكانها ؟ الإبرة
والسماعة وإذا لبست الجواتتى فلن أترك بصماتى فى سيارته . وفى
مدينة المقطم ما الغرابة فى أن تقلب سيارة إنسان عند منحنى
لخطير ؟ حادث مروع فى المقطم ، سيارة تسقط وتحترق عن آخرها ،
ومصرع رجل من الأعيان هو محمود جاد الله . فى الأفلام
رأيت مثل هذه الأشياء فلماذا أفترض انها فبركة من المخرجين ؟
وهذه الأرض أمسحها مسحا جيدا يزيل كافة آثار الزجاج والعسل ،
والحديقة أرشها حيث تسلت أقدام الرجل

كم ارتعدت يدي وأنا أمدتها نحو وجه الرجل بالفوطة المبللة ،
مسحت عن جبينه دماء قليلة فأغلب الظن أنه مات بارتجاج في المخ .
واقشعرت بدني وأنا أمسح العسل عن شبيه الكثيف الأسود ، في
السجن يا أوباش . وعلى الجاكتة بقعة عسل فيجب أن أخلعها عنه
قبل نقله إلى السيارة ، أليس ممكن ألا تحترق به تماما كما
يقول المخرجون ؟

وفجأة تجمدت من الرعب ، وأظن أنني شهقت أيضا . عندما
بدأ رأس الرجل يتحرك أمامي ، وبدرت منه أنه خشنة
مثل حيوان جريح يزوم . ثم تقلصت جفونه في محاولة لفتح عينيه ،
بصعوبة فتح عينا واحدة وبقيت الأخرى مختومة بالعسل .
وبصعوبة مماثلة باعد بين شفثيه الملتصقتين وبطرف لسانه دفع
شعرة . بعينه الواحدة راح يتفحصني ويتذكر من أكون ، مثل
إكائن نزل من كوكب آخر . ثم فتح الأخرى وراح بالعينين يحملق
إلي ويتذكر ، سرعان ما فاضت عيناه بحقد رهيب . تحامل لينهض
فسبقته بالنهوض ووقفت متحفزا ، في حجرتي خشبة كبيرة من بقايا
نجارة تنفعني إذا طلب العراك . معتمدا بيديه على الأرض وسط
العسل وشظايا الزجاج ، جاهد الرجل حتى استوى جالسا . ثم نظر
إلى يديه وإلى الفوطة التي تركتها بجانبه ، تناولها وشرع ينظف
يديه ثم رفع يديه إلى وجهه يتحسسها ، وبالفوطة بدأ يمسح وجهه .
وفي صمت تحامل على نفسه ونهض ، وقف أمامي يرميني بنظرات
متعبة أكثر منها كارهة

— الحمام فين ؟

فأشرت إلى الباب في المر القريب ، ترنح خطوتين ثم اعتدل
وسار . صوت الماء في الحمام ويجب أن أجد شيئا بليغا أقوله له

عندما يعود .

— يا أستاذ جاد الله ! انا وأميرة بنجب بعض واحنا أد كده هه !
أد كده هه والله !

فوقف صامتا يستوعب كلامي وبلسانه دفع شعرة .
— وسيادتك اتجوزت عليها ! سايتك رجعتها بالعافية ! وماتتشن
راضى تطلقها !

أردت أن أقول له وبتعضها لكنني أمسكت

— إعتقها لوجه الله ينوبك ثواب !

فما نطق بحرف حيث وقف هنا والفوطة متدليلة من يده ، في
صمت ينظر إلى ويكرهني

— هي خدت العريية ؟

— لا

— راحت فين ؟

— الله أعلم !

فتردد لحظة ثم ألقى بالفوطة على الأرض واتجه إلى الباب ،

وصوت هدير الموتور للسيارة التي تبتعد . أيزهد إلى البوليس ؟

فما فائدة الفضيحة في جريمة لا يمكن إثباتها ؟ ويجب أن أنه فيني

إلى أن لا تفتح له الباب إذا راح هناك

لكن التليفون رن من قبل أن ألمسه ، وكان صوت فيني شديد

الاضطراب

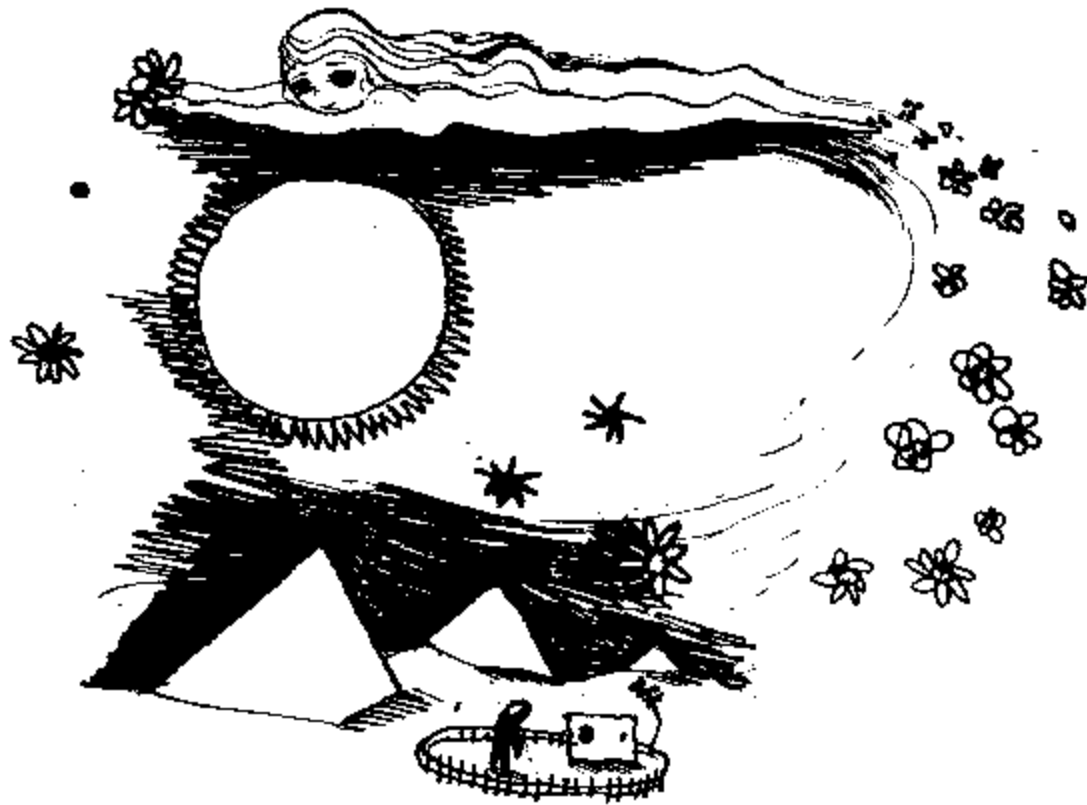
— أستاذ حمادة ! تقدر تيجي حالا ؟

— ليه ؟

— مرمر ! موش عارفة مالها !

— مالها ؟

- مين هو يامرمر ؟
 تعاسة الدنيا كلها في عينها الحولاء ووجهها الغارق في الدموع ،
 بقبضتها تدق على ركبتيها وتولول
 - ليه يدبحوه ؟ ليه ؟
 - مين يامرمر ؟ مين ؟
 - الجمل الصغير الحلو !
 - مافيش جمال اندبخت يامرمر
 - دبحوه يافيفي ، دبحوه ! الجمل الحلو ابو شعر منكوش !
 ليه يدبحوه ؟ ليه ؟ ليه ؟
 وبينما نظرت إليها تدق على ركبتيها وتبكي فاضت نفسي حسرة ،
 وفي وسط حسرتي ذكرت اسم الدكتور أمين لطفي



- موش قادرة اتكلم دلوقت ! أرجوك تيجي
 قطعت هذا الشارع المظلم الطويل على القدمين قبل أن أجد
 تاكسيا في شارع الهرم . ضغطت الجرس ففتحت فيني وبدلا من
 أن تدخلني خرجت إلى تمطرنى بالأسئلة
 - هي كانت عندك الليلة ؟ وإيه اللي حصل ؟ جرى لها إيه !

فدهشت

- ماقلتلكيش حاجة ؟
 - مابتكلمش خالص ! مانطقش بحرف ! دي جرى لعقلها
 حاجة !

على ذلك المقعد الكبير في صالون فيفي ، متهدلة عليه أكثر منها
 جالسة ، شاحبة الوجه غائرة الخدين كأنها مريضة من سنة . منكوشة
 الشعر حولاء ، يداها مقلوبتان على حجرها وساكتتان كأنها
 نسيتهما هناك

- مرمر ! إفرحي جوزك ماماتش !
 فرفعت إلى عينا حولاء غير فاهمة ، ثم حادت ببصرها إلى فيفي
 مستفسرة

- ماماتش يامرمر ! كان دايبخ بس . غسل وشه وخرج زى
 العفريت !

في صمت راحت تنظر إلى نظرة جوفاء ، وفجأة رأيت ذقنها
 ترتعد كطفلة ستبكي . ودموع طفرت من عينيها وبدأت تبكي ،
 بصوت جريح تولول وتضرب بقبضتها على فخدها

- دبحوه يافيفي ! دبحوه !

فتبادلت وفيني نظرات دهشة وفزعة

- دبحوه ولاد الكلب ! دبحوه !

مثل بسمة الدكتور ، وأحيانا تهز رأسها موافقة على أشياء لم ينطق بها أحد . ثم ركزت بصرها على ومالت على فينى هامسة بشيء لم أسمع ، علمت فيما بعد أنها تسألها من آكون - قلت لها ده واحد قريبي !

فقلت لها أنها لا تعرف بمن أذكرها ، وبالنسبة لزوجها زعمت أنه مسافر ولا تعرف متى يعود . لكنها لحسن الحظ لم تنس الأشياء اليومية الصغيرة ، ترينت قبل الخروج بدون عون من فينى وأصرت على أن تستعير منها شراب كاروهات . إذ جلست تدعك عينيها الحولاء وتقول أنها تحرقها ، ثم نظرت في المرأة فشبهت أنا حولة ! وأصرت على أن تذهب الى طبيب العيون عصر اليوم

- تيجي ناخذها للدكتور أمين على إنه حكيم عينين ؟
لكننى لم أنجح قط في أن أحتكم على هذه القدرة الأثوية في الخداع

- وليه ماناخذهاش لحكيم عينين ؟
أوحيت له مقدما بأن يقول لمرمر أنه حول يرجع لأسباب نفسية ، وبعد الكشف قال لى إننى ماكنت بحاجة إلى ذلك الإيحاء . وعلى سلم عمارة الطبيب النفساني كرهت إعجابى بالسيقان الأربعة التي تصعد السلم أمامى ، ولم تنجح المراتان في أن تستخلصا من الرجل الثلجى سوى تلك البسمة المتقلصة للرجل القرفان . جلس مقابلا بين أصابعه العشر يقرب النظر بيننا ويخصنى وفينى بنظرة ازدراء

- تفضلوا اتم في الأودة الثانية ؟
وهناك في حجرة الانتظار جلسنا نكرهه في صمت ، ونكاية فيه فعصت فينى عقب سيجارتها على الأرض

- ٨ -

طويل نحيل كجبل الغسيل ، عرفته بنفسى وبمهنتى فلم يبد أى نوع من الاحتفال كأنه لا يقرأ الصحف . صافحنى بيد طرية مثل بطن الضفدعة ، وعلى سبيل الابتسام تقلصت زاوية فمه مثل رجل قرفان . تهدج صوتى وأنا أحكى له مأساة مرمر فما اهتزت فيه شعرة ، كأنه من روتين الحياة أن تقتل الزوجة زوجها ثم تجن - بدل ماتت نفسك ماتجيبها هى تحكى بنفسها ؟

- أنا حبيت أدى لك فكرة عنها مقدما
فتقلصت زاوية فمه
- المريض دايمًا عنده فكرة أحسن عن نفسه . يوم الاثنين الساعة خمسة كويس ؟

- موش ممكن قبل كده ؟
- هى بتعمل حاجة غير انها ناسية ؟
- لا
- خلاص

فكرته من البداية ولكن ما باليد حيلة . فى صالون فينى جلست مرمر واجبة ، منكوشة الشعر مكدسة فى المقعد الكبير . خشيت أن تبكى من جديد على الجمل الذبيح ولكنها لم تفعل ، صامتة تفكر فى أشياء لا يعلمها الا الله . أحيانا ترسم على شفيتها بسمة متقلصة

— دمه يلطش !

فتنهلت

— الداهية انه دكتور كويس

— أما نشوف .

وتابعت عيناها نحو تلك اللوحة المعلقة على الحائط وقد خطت

عليها حكمة لفرويد

— تطلع إيه دي ؟

حيث كانت الهى هناك الآن سوف يكون ، شرحتها لها قدر

استطاعتى وتظاهرت هى بالفهم

وبعد ساعة بالدقيقة دعانا المساعد للدخول حيث رأيت مرمر

جالسة تجفف بالمنديل دموعه فى عيناها الحولاء

— يوم الخميس الساعة خمسة

تركت المرأتين تخرجانا وبقيت معه لأسأله سؤالين :

— إزى حالها يادكتور ؟

فتقلصت زاوية فمه

— تعبانة !

فاغظت .

— مانا عارف انها تعبانة ، إمال جايها لسيادتك ليه ؟ قصدى

يعنى فيه أمل ؟

— دايمًا فيه أمل

وبسط بطن الضفدعة نحوى فتجاهلتها

— إيه رأى سيادتك فى إننا نحكى لها كل اللى حصل

— موش ح تصدقكم

— واحنا ح نكذب عليها ليه ؟

— ده منطق سيادتك . هى ناسية ليه ؟

— ليه ؟

— لأنها عايزة تنسى !

— يعنى مانقولهاش ؟

— على كيفكم

ومن جديد بسط نحوى بطن الضفدعة فتناولتها متقرزا . خرجت

ألعن أباه ، وفى مرآة السيارة رأيت ابتسامة تتلاعب على وجه مرمر

— والنبي دمه خفيف !

— بس اسمعى كلامه بقى عشان تخفى

— أسمع كلامه ف إيه ... هو قال لى حاجة ؟ دنا اللى طول

الوقت اتكلم !

وضحكت ضحكة جافة ثم ركزت عيناها على قفاى

— موش قادرة اعرف قريبك ده يفكرنى بمين !

ثم دعكت عينيها الحولاء وسرحت ببصرها إلى الطريق . حيييتى

مرمر ، أتكونين قد لقيت مصيرا أسوأ من السجن ؟ وثلاث جلسات

فى الأسبوع وكل واحدة بجنيهن ، بارك الله فى الرفاق الذين علموا

بالمحنة فاكتبوا فيما بينهم وأقرضونى مائة جنيه

ومن مصر الجديدة بعد أيام رن صوت فيفى وكانت فيه نبرة

ساخرة ، عن ورقة الطلاق التى وصلت على البيت مع عسكري

— لوم الاول ابن الكلب موش كان وفر علينا كل ده ؟

وأنا الآخر فاضت نفسى حسرة

— الله يخرّب بيته !

— وييت أبوه يارب !

ثم تطرقت الى صوت فيفى نبرة مرحة



— المهم موش كده بقى ... عارف مرمر عايزة إيه ؟
— تخين

— عايزة تيجى تزورك !
فخفق قلبى أملا

— هى افكرتنى ؟

— ياريت .. برضه فاكراك قريبى

— امال عايزه تزورنى ليه ؟

— أنا عارفة ؟ يظهر انك عجبته !

— ده يدل على إنها موش مجنونة زى ما احنا فاهمين ..

— بقى كده !

— طب نسأل الدكتور

— ما انا سألته قال على كيفها ..

فى حياء دخلت مرمر وراء فىفى وبهية من يدخل البيت للمرة الأولى ، على هذه الكتبة جلست صامته تحمق بعينها الحولاء إلى مربع النافذة المظلم ، تبادلت وفىفى نظرة متفاهمة ورحنا نخلق الموضوعات للثرثرة ، وهى صامته عازفة عن الكلام

— مالك يا مرمر ؟

— بردانة !

— فى الحر ده ؟

— بردانة قوى !

ورفعت ذراعيها تغطى صدرها وكتفيها ، ترتعد بقوة وكدت

أسمع صوت اصطكاك أسنانها

— يا الله يا فىفى !

— يا الله إيه ؟

— نروح !

— على طول كده ؟

— يا الله يا فيفى !

وفهضت وهى ترتعد ، أسرع نحو الباب وهى تتلفت وراءها فى فزع ، خرجت دون أن تحيينى وفيفى وراءها بعد أن نظرت نحوى وبسطت حولها ذراعين حائرين . كرهت الدنيا ليلتها ولم أنم إلا بعد أن سكرت طينة

لكن صوت فيفى رنًا من جديد مرحا

— برضه عايزة تيجى تزورك !

— تانى ؟ !

— أيوه ..

— وبرضه موش فاكرانى ؟

— أبدا

— اشمعنى فاكراكى اتى ؟

— أنا عارفه ؟ لا وبتقول لى إيه ؟

— إيه ؟

— عايزانى أقعد معاكو شوية وبعدين اشوف لى حجة واقوم !

— يانهار اسود !

هنا كان لا مفر من استشارة الدكتور ، وكان صوته كالمعتاد مثلجا

— هو سيادتك خايف تقعد معاها لوحدهك ؟

— موش خايف ، بس هى فاكرانى واحد تانى !

— طيب وإيه يعنى ؟

— أقعدها لوحدها مع راجل غريب !؟

— سيادتك عايز تفهمنى انك غاير من نفسك ؟ !

— لا بس خايف عليها ..

— من إيه ؟

— افرض كده ولا كده ..

— فرضنا

— هى مراتى ؟

فلا بد أن فهمه تقلص بابتسامة القرف

— وهى قبل كده كانت مراتك ؟

فأفحمنى قوله وسكت

— الغريبة اللى يقره كتابه سيادتك يفكر حاجه غير كده خالص

— إزاي يعنى ؟

— يعنى بحبها شوية

وأقلل السكة وتركنى أعلى

وبنفس الحياء دخلت مرمر وجلست هنا صامته ، أنا وفيفى

تثرثر وهى تختلس نحوى نظرات غريبة صامته ، وفجأة تراءت فى

عينها الحولاء نظرة مأكرة وهى تشير نحو البار .

— ده ويسكى ولا انا غلطانة ؟

— ويسكى .. ليه ؟

فضحكت ضحكة جافة

— تدوق ؟

— بلاش أحسن

فبدت فى عينها نظرة شخص أهين وأشاحت بوجهها ، وتنهدت

أنا وتناولت سماعة التليفون . مرمر لا تعرف الفرنسية فيمكننى

أن أستشير الطبيب بلا حرج

— لا مؤاخذة على الأزعاج بس فيه حاجة جدت .
— أفندم ؟

— عايزة تشرب ويسكى
سكته قصيرة ليتقلص فيه طبعاً

— سيادتك عندك ويسكى ؟

— أيوه

— يعنى سيادتك بتشرب ؟

— أيوه

— طب ليه هي ما تشربش ؟

— سيادتك عارف

— مجنونة يعنى ؟

— أظن كده

— وسيادتك عاقل ؟

— المفروض !

— طب موش غريبة شوية ان العاقل يشرب والمجنون مايشربش ؟
وأقفل السكة وتركنى من جديد أغلى ، مائة في المائة هو يريد
أن أفقد عقلى كى يكسب زبوناً جديداً !

من شفتين دارت رأس مرمر وراحت تحكى لنا عن كلب أسود
عضها في كتفها ذات يوم ، وقبل أن ينفذ الكأس كانت قد سكرت ،
ضحكت فجأة وصرخت تخاطب فينى

— فينى ! إتنى نسيتى ولا إيه ؟ !

فنهضت فينى وهي تنظر في ساعتها

— آه والله صحيح ، برافوا اللي فكرتتى ! عن إذلك يا أستاذ

حمادة ... مشوار صغير وراجعة على طول !

ووحدى مع مرمر ركبنى ذعر صبيانى ، على صوت الصراصير
المنبعث من هذا المربع المظلم . هنا حيث جلسنا وهي مطرقة بوجه
متورد ، وبين حين وآخر ترفع نحوى عينا متسللة بإسمة حولاء .

وفجأة ضحكت فينى بغيث

— يا ترى فينى وراها إيه ؟

فأرددت أن أضربها ولكننى تنهدت

— لازم شغل ولا حاجة

فضحكت مرمر من جديد ، حتى في جنونهن يحبين الخداع

— نفسى في حاجة حلوة

ولعقت شفيتها بلسانها وتلفتت حولها باحثة ، فتذكرت العسل

الذى كنت قد اشتريته على سبيل الاحتياط . أحضرت لها البرطمان

الذى فتحته ثم نظرت إلى في حيرة

— من غير صحن كده ؟

— آه لا مؤاخذة !

سبحان مغير الأحوال ، قصدت إلى المطبخ لأحضر الصحن وفي

طريقي سمعت نداءها

— ولقمة والله يا أستاذ حمادة !

فضحكت وشر البلية ما يضحك ، وعدت بالصحن لأجد أنها لم

تعد في حاجة إليه . متربعة على الأرض بجانب البار والبرطمان في

يدها ، تصب منه على الأرض شريط عسل وتحركه في دوائر كى

تحوله الى بحيرة صغيرة من العسل

— مرمر !

فنظرت إلى في استغراب لأننى ناديتها باسم الدلع

— أميرة هانم ! الصحن آهه

فلوحت بيدها مستهتره

— بلا صحن بلا دوشة !

وبللت إصبعها من العسل المسكوب ولعقتهم

— ومع ذلك ناخذ لقمة !

وتناولت الرغيف وقطعت منه لقمة غمست بها من على الأرض .
مطرقة تاكل ومن حين لآخر تسلل نحوي بتلك النظرة الماكرة ، ومع
نظرتها تبتسم وترفع كتفيها حول عنقها . مزيج من الرثاء والغيظ
يحتدم في نفسي ، إحساس أليم بهذا التناقض التعس بين المهزلة
والمأساة . نعم هي لقيت مصيرا أسوأ من السجن ، لعنة الله على من
كان السبب

وأنهت مرمر وجبتها فمسجت يدها في ذيل فستانها ونهضت
تتجشأ . وعلى استحياء أتت وجلست بجانبى هنا ، وقع بصرها على
اليك آب عن يسارى
— ما تسمعنا حاجة

الاسطوانة موضوعة هناك من يومها ، أدرتها عن الطرقات الجلييلة
المنذرة بشيء يخلق . أصفت مرمر صامته تستوعب اللحن وبينما
تصغى تحملق نحو ذلك المربع المظلم . ما أتعس مرمر حيث تحملق
إلى النافذة كالبلهاء ، وما أتعس العاطفة التي ثارت في نفسي فجأة
وأنا أتأملها

— مرمر !

فنظرت إلى متسائلة :

— مرمر حبيبتى ! ليه موش عارفانى ؟ ليه ؟

فبلت عليها الدهشة ثم تضحكت في أدب

— ازاي موش عارفاك يا أستاذ حمادة ؟!

— أصلى موش أستاذ ! أنا حمادة بس !

ومددت يدي فتناولت يدها ، جذبتها أول الأمر ثم استسلمت ،
بوجه متورد لبنت تسلم يدها للمرة الأولى ، رفعتها إلى فمي
وقبلتها ، ومرمر مطرقة بوجهها المتورد . ورفعت ذراعى أحطت به
كتفيها ، ما أتعس ذلك الكتف البعيد الذي وثب

— إنت بتجبنى ؟

— قوي يا مرمر !

— وانا كمان يا أستاذ حمادة !

وما أتعس ذلك الأنين في اللحن المنفرد للطفل الذي كان يمكن
أن يولد من الزواج المقدس

— مرمر !

لكن مرمر شهقت فجأة وتصلبت ، تابعت نظرتها إلى النافذة
فوجدتني أنا الآخر أشهق . العينان السوداوان البراققان في رأس
الكائن الرابض هناك فوق حافة النافذة ، نظرات حادة مجنونته خلعت
قلبي قبل أن أتبين أنها نظرات ضفدعة . أكبر ضفدعة رأيتها في
حياتي ، فلست أدري كيف نجحت في القفز إلى حافة النافذة . لكن
مرمر لم تتبين ما تبينت ، ورعب الدنيا كلها تجمع في عينيها . متوترة
تحملق إلى الضفدعة كأنها عفريت ، ونهضت فجأة فتعثرت في هذه
الترابيزة وسقطت

— ماتخافيش يا حبيبتى ، دي ضفدعة !

فما أظنها سمعتني ، حيث بدأت تزحف على الأرض نحو البار ،
متلاحقة الأتقاس بما يشبه الخشرجة . لم تنزع بصرها عن الضفدعة
لحظة واحدة ، ويدها راحت تتحسس على الأرض باحثة عن شيء
ما . كان برطمان العسل على الأرض حيث تركته هناك ، أصابته

يدها وقلبه ثم عدلته دون أن تنزع بصرها عن الضفدعة . ثم رفعته إلى أعلا وكان مفتوحا فسأل منه على كنفها شريط عسل ، وبكل قوتها طوحته نحو النافذة قذيفة صاعقة . جرف البرطمان الضفدعة وطارا في الظلام ، تستطيع حبيتي لو شئت أن تكون بطة يسبول هناك على الأرض رأيتها فجأة ترفع يديها لتغطي بهما دموعها ، ثم مالت على جنبها وعلت منها تلك الزفرات كالحشرة . على الأرض تبكى وتتلوى ، ثم رفعت قبضتها مضمومتين في أعلا ساعدين يرتعدان . وفجأة تراخي الذراعان وسقطا حولها على الأرض بصدمة ، سكنت حركتها ولولا الصدر الذي يعلو ويهبط لقلت أن حبيتي ماتت

- ٩ -

على السرير في المستشفى تحت الملاء البيضاء ، ما زال صدرها والحمد لله يعلو ويهبط ، لكنني من الأعماق كرهت جبل الغسيل حيث يجلس ينظر إليها في برود ، ساق على ساق والعليا تتدلى حتى تلامس الأرض . بعينين كسولتين يراقبها وابتسامة القرف على شفقيه ، بينما نزع الطبيب الآخر ذو البالطو الأبيض سماعته عن أذنيه

- ما فيش خطر ، قلبها كويس جدا
وابتسم عن سنة ذهبية وخرج ، وعبر السرير جلست فيفي تعض
إصبعها عصيبا صغيرا

- آدى آخرة الزيارة !

أكلمة وجهتها إلى فيفي ليسمعها جبل الغسيل ، فحاد نحوى بعينه الكسولتين وفيهما نظرة ازدراء . تقلصت شفاته بشيء يريد أن يقوله ثم عدل ، نظر في ساعته ونهض طويلا نحيلًا كالشعبان . في سكوت خرج وأغلق الباب وراءه ، وصدر مرمر ما زال والحمد لله يعلو ويهبط .

- صباعك خلص يا فيفي !

فنزعت إصبعها من بين أسنانها وزغرت لي في صمت . تحت الملاء البيضاء صدر مرمر يعلو ويهبط ، ما أتعب شخصا ليس له من



الحياة سوى قلب ينبض . نعم هي لقيت مصيرا أسوأ من السجن
فلعنة الله على من كان السبب . لعنة الله على أبي شنب وأبي قتب ،
وعلى عم سالم يوم خلق في بطن خالتي ذلك الاتفاح على بحر
يوسف . واللعنة قبل الجميع على أنا ، ما التقيت بمرمر قط إلا
وكنت عدوها

— امم !

تزوم حبيبتى تحت الملاءة البيضاء وتحرك رأسها ، نهضت بسرعة
أربت على الشعر الأسود المبعثر على الوسادة البيضاء . ببطء فتحت
عينها تأملنى بنظرة بعيدة غائمة ، ثم أشاحت بوجهها وهي تزوم .
وتحول الزوم إلى أنين ثم إلى تلك الزفرات كالحشرة ، بسرعة
قامت فينى فنادت الرجل ذا الباطو الأبيض . تحسس نبضها في
صمت وهو ينظر إلى كارها
— ممكن والله تسيبها لوحدها !

ومرمر حادت برأسها نحوى وصوبت إلى تلك النظرة الغائمة ،
سرعان ما أنت من جديد . أنا مكروه من الجميع وعدو البشر ،
تحاملت على نفسى وخرجت . اللعنة فى الشرفة على صوت الصراخ
وعلى كل ضفدعة فى كل حقل من حقول الهرم . واللعنة على الهرم
نفسه ومن بناه ومن قصف رأسه ، بين القوسين العاشلين فى ضوء
القمر

ورنين مبكر للتليفون من فينى

— لسه دايله ، ما نطقتش بحرف . والدكتور أمين يقول لك

ما تروحش المستشفى خالص

— وده ليه بقى ؟

— أنا عارفة ؟ آهه استنى عليها لما تفوق

فاللعنة على هذا الصباح الحار وعلى الجهنمية الحمراء وعلى
الفراشة البيضاء التى رفرفت على السور . لم أشرب طوال حياتى
فى الصباح ، لكننى شربت فى ذلك الصباح ونمت عند الظهيرة بعد
أن تقيأت

— هيه يا فينى ؟

— برضه زى ما هى

— وبرضه ما اجيشن ؟

— أيوه

فاللعنة عند الغروب على هذا التل البعيد مثل القتب ، وعلى
الشجرتين الذابلتين فيما تبقى من ضوء شمس غربت . ومددت يدا
تغلى إلى التليفون وطلبت جبل العسيل ، رن صوته كالمعتاد مثلجا

— زيارتك تفيدها بايه ؟

— وح تضرها بايه ؟

— منظرك بيترفضها

— ولما انت عارف كده سبتها تزورنى وحدها ليه ؟

— وما اسيهاش ليه ؟

— موش شايف النتيجة ؟

— النتيجة فى مصلحتنا

— إسمح لى إنك بتخرف !

فصمت لحظة يستوعب الموقف وبالطبع يتقلص

— سيادتك شارب حاجه ؟

— لا والله

— عيان ؟

— ما أظنشن

— أصلى موش متعود أحتمل قلة الأدب الا من العيانيين ! وعن
إذناك قدامى حالة غير سيادتك !

فأللعة على كل حبال الغسيل وعلى الأنا الذى حيث كانت الهى
سوف يكون ! ظلام هى الحياة إلى أن رن صوت فيفى فى فرح :
— طابت يا أستاذ حمادة ! طابت !

فدقت بين الضلوع ألف طبلة ودوى أنف تغير
— والله العظيم ؟

— آه والله ! طابت وافكرت كمان !
مع الطبلة والنفير رن ألف ناقوس
— إفتكرتنى ؟

— يا خسارة انت لسه !
— إخص !

— لكن افكرت حاجات كثير

ذكرت زوجها وكيف رجته بالبرطمان ، وكيف كانت وقتذاك
فى بيت الأستاذ حمادة بالهرم
— شوية شوية تفكر

ونفس الكلام ردهه جبل الغسيل حين رحت أزوره فى العيادة ،
ولأول مرة رأيت على شفثيه ما يشبه ابتسامه حقيقية
— عشان ما تبقاش تطول لسانك !

فبينما أصافحه لعنت نفسى لأننى لعنته ، تمنيت والله أن أنحنى
لأقبل منه بطن الضفدعة . حتى بعد أن قرر إرسال مرمر إلى
الإسكندرية حينما من الزمن لتستجم ، شهرا لا ترى فيه وجهى .
فى شهر قليلة كدس على الديون ولكنها حلال عليه ، فداء مرمر
كل ما يملك الرفاق !

— ١٠ —

على صوت الصغير علا فى السماء صوت أزيز لترترة لمعت جنب
قرص القمر ، سارية تلمع وكل ترترة فى السماء مرمر . مثل
الإلكترون جيتى ، فى أية لحظة قد تكون فى أى مكان
— مرمر !

بعد شهر الإسكندرية وقفت على بابى ذات ليلة تبسم ، منظرها
ألجمنى وبدا عليها السرور لأنه ألجمنى . عيناها واسعتان سليمتان ،
ودماء كثيرة مشت فى الوجه الذى كان شاحبا
— مساء الخير !

رنة غريبة فى صوتها ومدت يدها لتصافحنى ، سنخيف جدا أن
أصافح مرمر ولكن شيئا غامضا جعلنى أكتفى بالمصافحة . ودخلت
منتصبه القامة وئيدة الخطى ، وقفت تستعرض الصلاة باسمه . بعد
أن وضعت على البار دوسيتها سميكا أزرق كانت تحمله تحت إبطها
— إزيك يا حمادة ؟

ببساطة كأنها ما فارقتنى إلا بالأمس ، ورنه معدنية غريبة فى
صوتها . بعيون سوداء واسعة تتأملنى باسمه ، رائحة فى ابتسامتها
لعسل زمان لكنها ليست رائحة خالصة . فى ابتسامتها أيضا وفى
نظرتها شىء جديد معدنى

— شكلك زى اللى خايف منى ! ما تخافش خلاص طبت ، ها !

لترشف من الكأس رشفة
 - إثنين وثلاثين جلسة في ثلاثة جنيه ميتين وستاشر ، ما تخافش
 ح اسددهم لك بس طبعا تقسطهم على ا
 - مرمر !
 - وفينى لها خمسين يقوا ميتين ستة وستين ، يعنى من بكرة
 الشغل على ودنه !
 فاغظت أكثر
 - الكلام ده معناه انك لسه شوية ا
 - ها ! موش كل واحد ياخذ فلوسه ؟
 وخيم صمت شغلته بالنظر إلى مربع النافذة المظلم ، على صوت
 الصراير ونباح كلب بعيد . تنظر إلى النافذة بإتسامة المرارة
 والنصر ، وفجأة هزت رأسها كأنما تنفض عنها شيئاً ونهضت
 - بينا فى الطراوة
 وهنا فى الشرفة جلست على الكرسي لا على الشلتين ، ملات
 صدرها بشهيق عميق من هواء الحقول ثم أطلقت زفيراً طويلاً .
 ثم حادت بصرها إلى الشجرتين العاليتين وابتسمت
 - والله سلامات ياست مرمر !
 فضايقتنى لهجتها الساخرة من شجرتى لكننى لم أقل شيئاً
 - لسه برضه بيحبوا بعض ؟
 - حمادة أيوه
 - ومرمر لا ؟
 - أسألها
 - ها !
 وعلى صوت الصفير علا فى السماء صوت أزيز ، رفعت مرمر

وعادت تستعرض الصلاة بالعيون الواسعة السوداء ، بإتسامة
 فيها مزيج من المرارة والانتصار
 - زى ما سبته تمام .. موش كان هنا برضه ؟
 - هوه ايه ؟
 - محمود !
 وأشارت إلى الأرض بجوار الحائط حيث تكدس زوجها ذات ليلة
 - إتنى افكرتى يا مرمر ؟
 لكنها لم تجب على سؤالى
 - عمل ايه لما فاق ؟ ضربك تانى يا مسكين ؟ !
 فلست أدري لماذا غاظتنى لهجتها ، الحروف الممدودة الساخرة
 كأنها تخاطب طفلاً
 - إتنى سبتى فيه حيل للضرب ؟
 - عطشانة
 - هه ؟
 - إسقينا حاجة
 وأشارت إلى البار فصبت كأسين بيد مثلجة ، مكتوب على فيما
 يبدو أن أتعرف على مرمر للمرة الرابعة ..
 - موش باين عليك مصدق انى طبت !
 على الكنبه جلست والكأس مرتكز على ركبته تتأملنى ساخرة ،
 ساق على ساق فى شراب كاروهات ، وحتى فى ساقها شىء معدنى
 - أثبت لك ياسيدى !.. إسمى أميرة وأمى نقيسة وأبوياسالم
 وجوزى محمود جاد الله ابن الشيخ جاد الله خمسة وعشرين شارع
 خيرى فى المعادى ، ها !
 ضحكته جديدة أيضاً ، وتوقفت عن رص معلوماتها لحظة



رأسها نحو الترترة التي لمعت جنب قرص القمر.

— جاية لك يا روحي ، جاية لك !

ثم ركزت بصرها على في تصميم .

— شغل على ودنه ! شوف على ودنه يعني إيه ؟

وأفرغت الكأس في جوفها وناولتى الكوب لأملأه ، عدت

فوجدتها قد انتقلت من الكرسي إلى الشلطة واضطجعت تنظر الى

السماء بإبتسامة حاملة . فجلست بجانبها أتأملها وأحاول أن أستوعب

تلك المرأة التي أكاد لا أعرفها

— موش ملاحظة حاجة غريبة ؟

— إيه ؟

— لغاية دلوقت ماجيتيش سيرة اسكندرية . عملتي إيه طول

المدة دي هناك ؟

— فكرت واتفسحت وأهم من كده طبت . ورسمت صور كثير

بس اوعى تقول لي وريها لي ، ها !

— كنتي نازلة فين ؟

— كوك دور تالت شارع بعد أتينيوس ، بنسيون صغير كده

ابقي آخذك فيه مرة !

— ما زهقتيش لوحدك ؟

— المجنون ما يزهقش أبدا ! ها !

وسرحت في ذكريات لا يبدو أنها تنوى التعبير عنها . ثم أدارت

رأسها نحوى حيث استندت إلى الحائط وابتسمت

— موش ملاحظ انت حاجة غريبة ؟

— إيه ؟

— لغاية دلوقت ما بستنيش !

متحدية لهجتها وساخرة ، ملت لأقبل شفيتها فأدارتهما وأعطتني
خدها

— وحشتيني يا مرمر

— إن شاء الله ما تشوف وحش !

ومددت ذراعي أحطت كنفها وضممتها ، ضغطت على كنفها
البعيد فلم يشب

وفجأة رفعت ذراعيها نحو السماء وتكلمت كأنها تلقي بيت شعر

— لفوق .. لفوق .. لفوق !

فضممت جسدها إلى وكان متوترا ، لكنه شيئا فشيئا أخذ يلين .
أزلت مرمر ذراعيها وراحت تنفحني كأنما تريد أن تكتشف في
شيئا ، ثم عبست وأطبقت بشفتيها على شفتي . في قبلتها شيء من
عسل زمان تمازجه لذعة جديدة قاسية ، وطوال القبلة لم تغمض
عينها . بالعيون السود تلتهم وجهي بنظرة حادة من الأعماق الغريبة
المظلمة

— وحشتني يا حمادة !

بصوت وحشي لم أعهد فيها ، جديد مثل كل شيء في مرمر
الرابعة . وفي الصباح فتحت الشنطة وأخرجت الكتب والورق على
فنجان من الشاي الثقيل

— على ودنه ! شوف على ودنه يعني إيه ؟

من الصباح إلى المساء لم تتعب أبدا ، ونظرة قاسية تلسعني بها
كلما تلملت

— إوعى تتكلم ! لا منك ولا كفاية شرك !؟

لم تسترخ إلا بالليل ، هنا على الشلتين حيث طغى على صوت
الصفير أزيز ترتر لمعت

— هانت يابنتي ، هانت !

وبسّطت ذراعيها كجناحي طائرة وأزت

— ز ز ز ز ز !

أحطت بدنها بالذراعين كأنني خفت أن تطير فعلا ، والسكمة
اللاذعة مع العسل في شفتي مرمر الجديدة . وذات ليلة عقدت
ذراعيها خلف رأسها وراحت تتأمل الشجرتين الحاليتين

— أسألك سؤال وتقول لي بالحق ؟

فتوجست شرا

— يا ترى لسه برضه عايز تتجوزني ؟

فعاظني سؤالها

— إمال شاري الدبلتين دول عياقة ؟

— ها ! ليه ؟

— هوه إيه اللي ليه ؟

— عايز تتجوزني ليه ؟

— سبحان الله ! الناس كلها بتتجوز ليه ؟

— عشان تجيب عيال تستخبي ورا الصحارة ، ها !

— بايخة !

— إانت اللي قايلها

— ولو !

— أصلى نفسي آخذ لي هدنة .. تعبت قوى م الجواز

— إنتي ح تتجوزيني ولا أبو شنب ؟

فسرحت لحظة تفكر

— ها ! إلا شنبه وهو طالع لنا م الشباك !

ثم ضربت كفا بكف

— الحاجة اللي مش قادرة افهمها ، عرف مين ليلتها انى عندك !

— شك من كتر خروجك

— لكن أنا باخد دروس

— وهو ايش عرفه ؟ وخلينا فى حكاية جوازنا ..

— والنبي أجل الحكاية دى بعد الامتحان ، خايفة لاسقط بشكل !

وكنت أكره ذلك الامتحان فلم أقل شيئاً

— على فكرة مدة الامتحان ح اقعده عند فيفى

— وده ليه ؟

— أهه كده

وتفدت رأيها وغابت عنى أسبوعا ، ثم رن صوتها فى التليفون

بفرحة مجنونة

— نجحت يا حمادة ! نجحت !

فلم أدر هل أفرح أم أحزن

— وخذت إكسيلنت كمان !

فتنهدت

— مبروك يا مستى

— موش باين عليك فرحان !

— فى الحقيقة موش قوى

— إخص عليك !

— أغشك ؟

ودخلت على بكومة جديدة من الأوراق ، الكورس الذى يجب

أن تدرسه كل مضيعة قبل أن تبدأ العمل

— على ودنه ! .. شوف على ودنه يعنى إيه ؟

— مرمر ! موش قلتى لى بعد الامتحان ؟

— إيه هو ؟

— الجواز ؟

— قطع الجواز وسنينه ! خلينا دلوقت فى الشغل

ساعات العمل ما أطولها ، معى بعقلها وليس لى من قلبها شىء

— موش كفاية بقى يا مرمر ؟

— إشتغل وانت ساكت ! لا منك ولا كفاية شرك ؟ ها !

وعند امتحان غابت يومين ثم رن صوتها بذات الفرحة الهوجاء

— نجحت يا حمادة ! نجحت فى الشغل !

فماذا أفعل سوى أن أتهد من جديد ؟

— مبروك يا مرمر

— ح اظير يا حمادة ! ح اظير !

— ما يظير الا عدوك يا بنتى !

ودخلت على ذات صباح بيونيفورم المضيفات ، وقمت أمامى

تدور لتعرض على الجاكيث الكحلى والبرنيطة المضحكة

— بدمتك موش جنان ؟

— من ناحية جنان جنان !

— يارب خليكى يا فيفى ، لولاها كنت سقطت فى الشفوى .

وصت على اللجنة تمام !

ووقفت تستعرض صورتها فى المرآة ومن شدة تأثرها بالمنظر

هجمت على المرآة وقيلت نفسها . ثم استدارت وبسطت ذراعيها مثل

جناحى طائفة

— ز ز ز ز ! ..

— وإمتى ان شاء الله أول طيران ؟

— يوم الخميس الساعة سبعة .. تصور انى ليلة الجمعة ح ابات
في روما ؟

فانزعجت إذ تخيلتها أمام الفاتيكان تقول ها ا

— ح تيجى تودعنى طبعاً

— أظن كده

— ومبوز كده ليه ؟ إفرح ا

وهجمت على تضمنى لتعدىنى بفرحتها ، كانت أول مضيضة أقبلها
فخيل إلى انى سائح أجنبى . والهدير الأجوف لدوامه الأصوات
الغامضة فى بهو المطار الفسيح ، وقفت مرمر محتقنة الوجه تطوى
أصابعها وتبسطها فى قلق

— خايفة ؟

— موت ا

— مرمر ! يا لله ما فيش وقت !

المحنقة السراء ذات العيون الخضراء ، أقبلت تجرى فى برنيطة
أخرى مضحكة

— يا لله اتأخرنا ا

فمدت مرمر يدها إلى

— باى باى يا حمادة ا موش عاوز حاجة من روما ؟

فنفخت ساخرا

— كياتى ا

وفى عينى مرمر رأيت نظرة حنان ذكرتنى بمرمر الأولى ، ومدت

بوزها فطبعت على وجهى قبلة سريعة

— مرسى يا حمادة

— يا لله يا مرمر !

— باى باى ا

وجذبتها فىفى وانطلقتا تركضان ، دق قلبى مع دقات كعوب
الحذاء التى تنقر البلاط ، فراشتان غريبتان بتعدان فى البهو الفسيح
وعلى أرض المطار وقف طائر خرافى ضخيم ، علا هديره فجأة
مثل وحش يزوم . يبطاء يدور على نفسه ويترحف كالتمساح فى الممر
الطويل ، ثم وقف لكى يدور على نفسه من جديد . والتمساح
تحول إلى قط كبير يتنمر ، لو أنه هز كالقطط مؤخرته لما دهشت .
ثم شرع فى الهجوم مكتسباً فى كل ثانية سرعة أكبر ، وفجأة وثب
عن الأرض وثبة جامحة وطار . بأزيز مجنون غاص فى السماء
لحظات قليلة وصار نقطة بعيدة عند الأفق

وهنا فى الشرفة وحدى ركبنى شعور أليم بالوحدة ، خاطبت
الشجرة الحاملة وأنا أغالب دمة

— مرمر ! ليه تسيينى ، ليه ؟

ودامع العين نظرت إلى ترتره لمعت جنب قرص القمر ، صارت
كل ترتره فى السماء مرمر . فى الصندوق الطائر فى الممر الطويل بين
الركاب ، بصينية معدنية وابتسامه مثلها تنحنى هنا وهناك لتطعم
الناس وأنا جوعان . خيل إلى أنها طارت ولن تعود ولكنها عادت ،
كعاصفة من الفرح الأهوج طرقت بابى بعد ليلتين وفى يدها لفافة كبيرة

— وسع وسع وسع ا وسع شوف امك جايبه لك إيه ا

ومن خرفشة الورق طلعت فائزة إيطالية مزركشة ، على البار
وضعتها مرمر وأمرتنى بأن أجمع من الحديقة صحبة ورد . ثم
أخرجت من حقيبتها شيئاً صغيراً أخفته وراء ظهرها

— إبتديت تكتب ؟

— تقريبا

— طيب خذ ، آدى قلم جديد عشان أسلوبك يتحسن ، ها !
وهنا فى الشرفة مزيج من العسل والنكهة اللاذعة ، وقصت على
وهى تضحك نكتة إيطالية ماجنة . كالنحلة حطت فى حديقتي ليلتين
وطارت إلى باريس ، حاولت أن أتخيلها طول الوقت أمام صورة
فى اللوفر

— وسع وسع وسع ! وسع دا انت أمك داعية لك !
جرس لبابى من ألمانيا هو آخر صيحة فى عالم الأجراس ، يضغط
الزائر عليه فيحذف له بدلا من الرنين لحنا ، صار كل من يزورنى
يدخل عندى بمقدمة موسيقية

— مرمر ! .. الهدفة لسه ما خلصتس ؟

— هو هوه ! لسه بدرى !

كالنحلة حطت فى حديقتي ليلتين وطارت ، الله وحده يعلم أين
تطير . والدبل على أى حال لم تخل من الفائدة ، أفلست فى آخر
الشهر فبعت إحدى الديلتين . وذات ليلة عزف الباب وفتحته عن
المحنقة السمراء ذات العيون الخضراء ، فى يدها لفافة وفى الأخرى
خطاب . اللفافة فيها زجاجة شمبانيا والخطاب من مرمر ، تريد منى
أن أكرم صديقتها وأن أشرب معها فى صحة الحبيبة نجبا . فجلسنا
هنا ساعة نشرب نخب كل ترتره تلمع ، أليست كل ترتره فى السماء
مرمر ؟ فوالله يا مرمر ما نسيك طول الوقت لحظة واحدة ، عن
عينيك أنت وعن شفتيك كنت أبحث فى وجه فينى ، وإن تشابهت
كل العيون حين يلمع فيها بين النور والظلال بريق نشوة
— قزازتى خلصت ؟

أول سؤال لها حين عادت ، ورفعت الزجاجه لتفحصها فبدت فى
عينها نظرة ماكرة

— ياه .. داتم شربتو تمام !

— فى صحتك

— ها !

واعتلت الكرسى الطويل أمام البار ، ساق على ساق فى شراب
جمع كل ألوان قوس قزح ، وأخرجت سيجارة رشفتها بين شفتيها
وهى ترمقنى بخيلاء

— عندنا ف أوروبا اما واحده ست تطلع سيجارة عشرة يجروا
بولعوها !

فأشعلت لها السيجارة وأنا أتصعب

— تعالى شوفى بنتك يا تقيسه ! تعالى اتفرج يا بو قتب !

فنفخت الدخان فى وجهى قائلة ها !

— نفسى تشوف الهرم بتاعك ده شكله إيه من فوق

— إشمعنى ؟

— دمل على وش الأرض

— نفسى اتنى تشوفى طيارتك دى شكلها إيه من تحت

— إيه ؟

— ترتره فى السما

— طب شوف بقى الفرق بين الدمل والترتره . بينا فى الطراوة ؟

هنا فى الشرفة على الشلتين ، وأشارت مرمر إلى الشجرتين

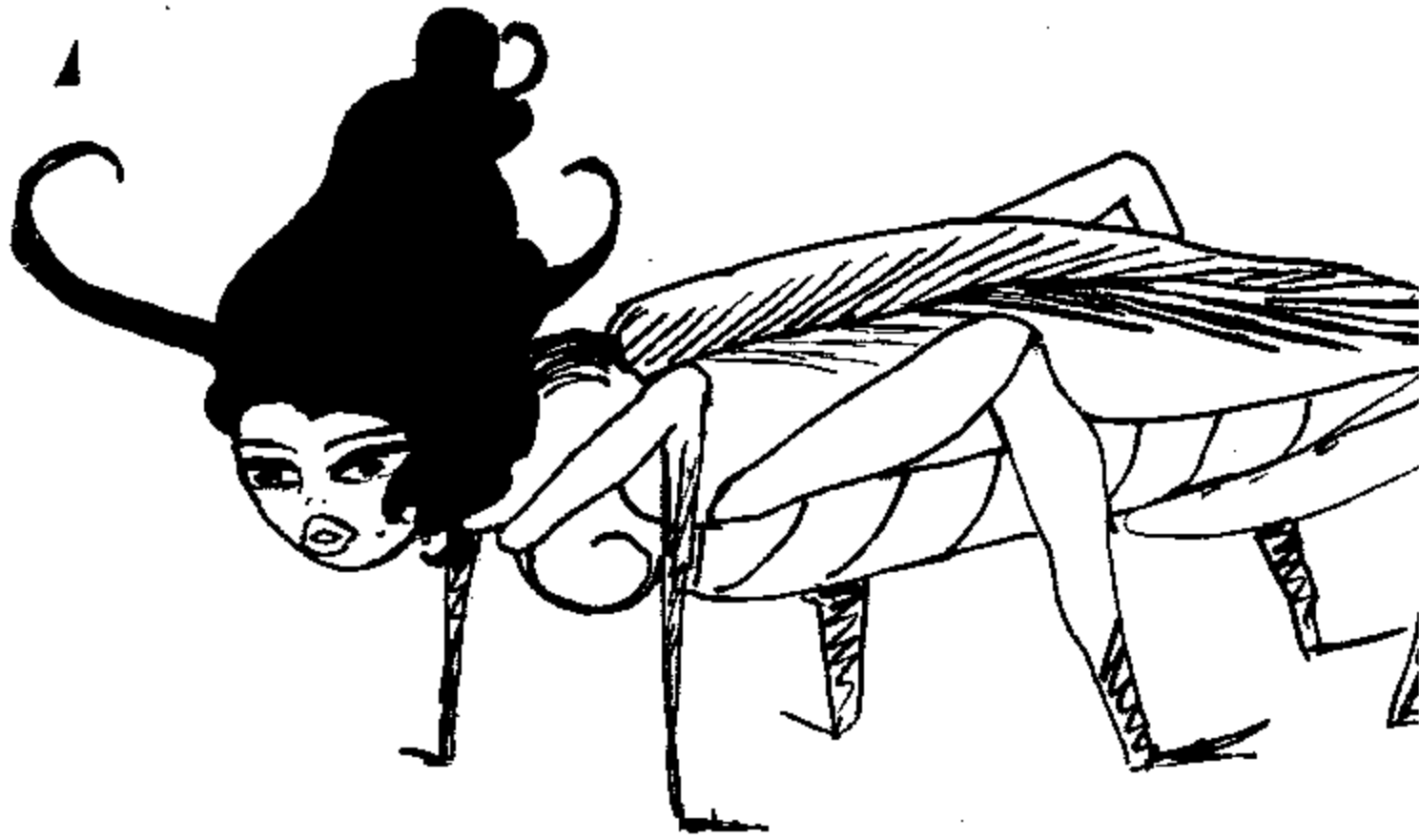
— بتسقى مرمر وحمادة ؟

— يوماتى

فرفعت ذراعها وملأت صدرها بشهيق عميق من هواء الحقول ،
ثم طردته زفيرا حرا طويلا

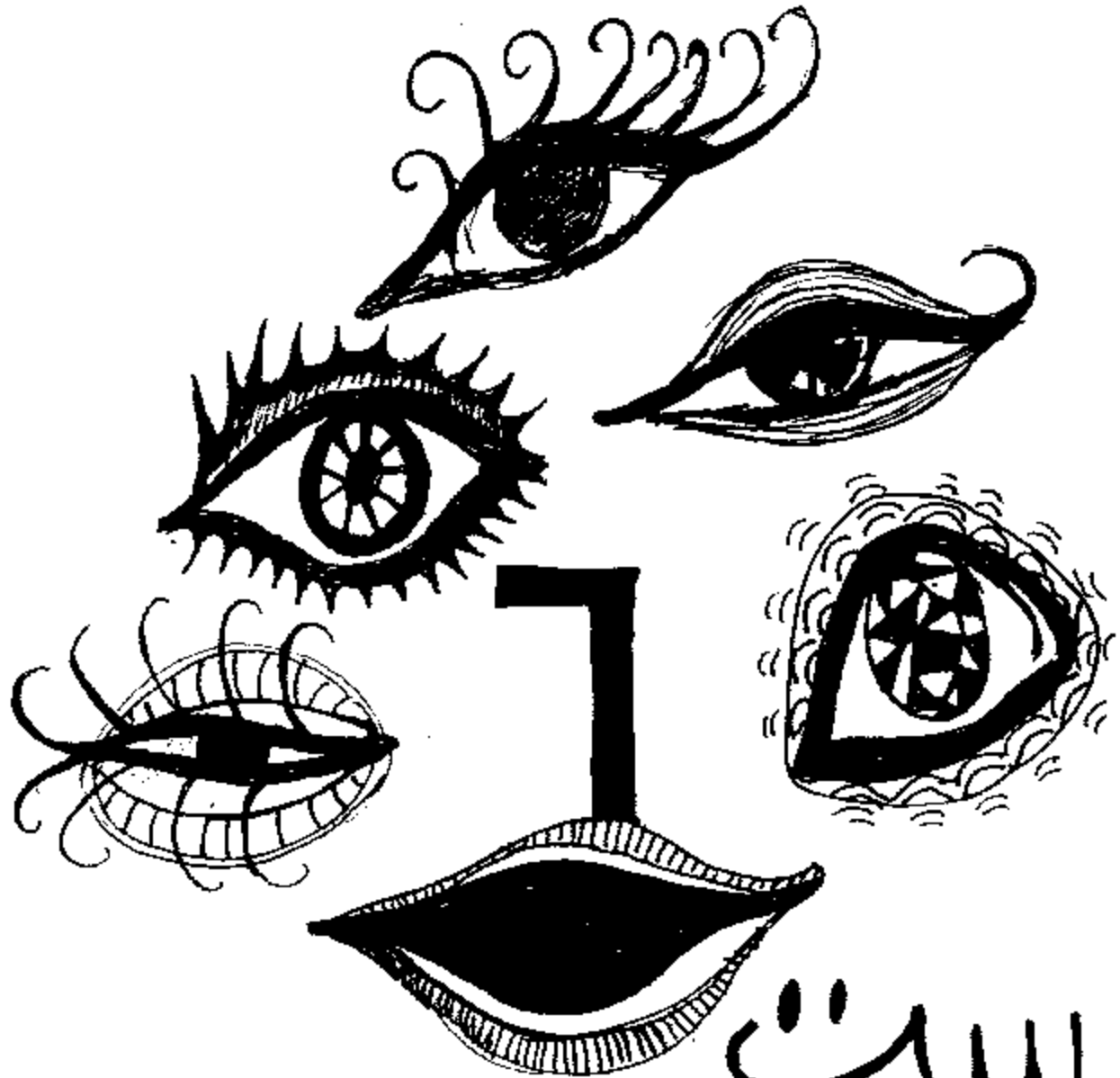
— عمرى ما كنت سعيدة بالشكل ده .. موش تسمعنا حاجه ؟

وعلى صوت الصغير علا في السماء صوت أزيز لترترة لمعت بجنب
قرص القمر ، فلماذا لا أرفع الكأس وأشرب نخبها من زجاجتها ،
أليست كل ترترة في السماء مرمر ؟ في صحتك يا حبيبتى وبورك
فيك وزززز ! أصفير الصراصير هذا أم أزيز الترترة ، أم ترانى
سمعت الباب يعزف لنا ؟!



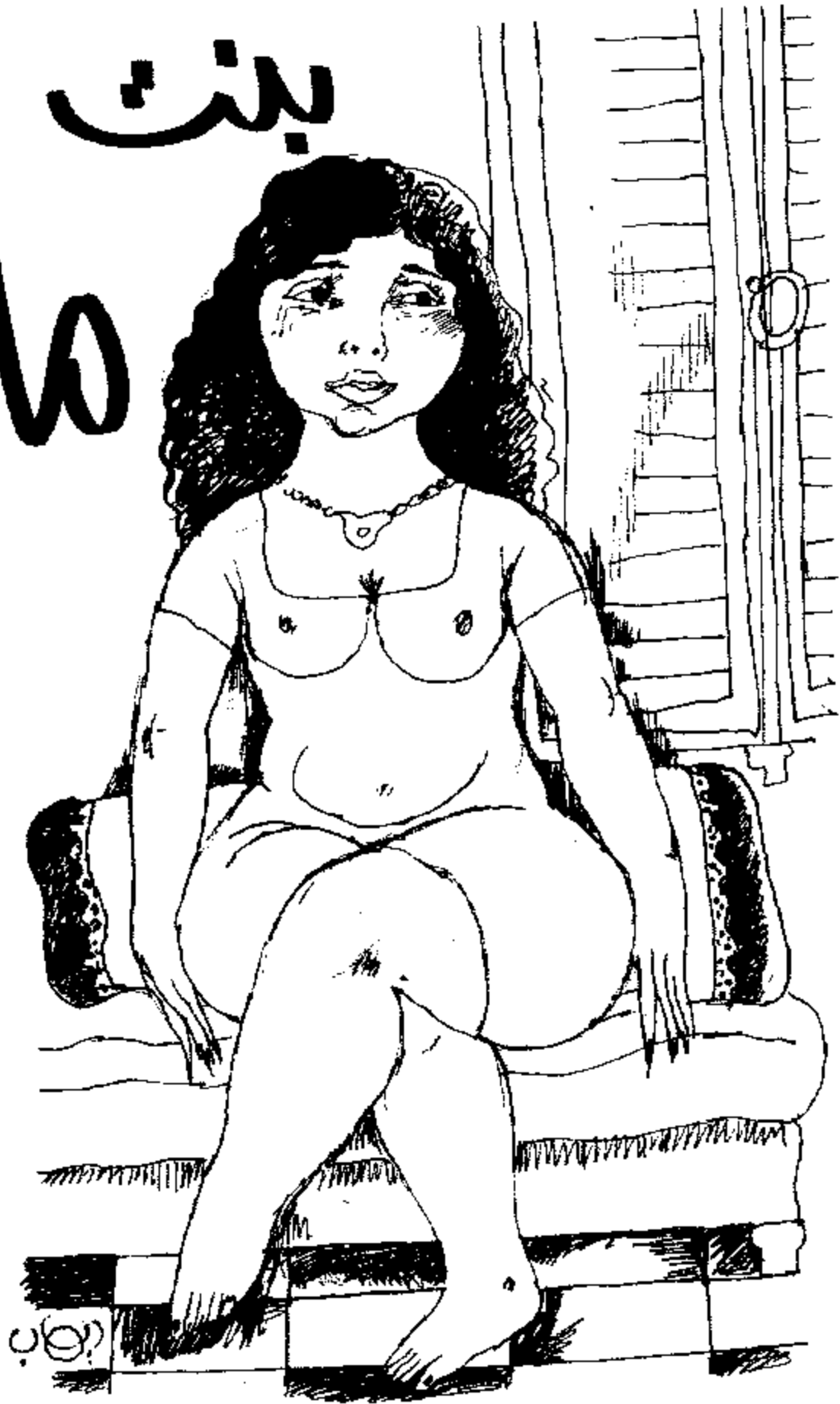
— الأليجريتو ؟
— إلا الهباب ده !
فأسمعتها النزوات الإسبانية التي تحبها ، وما أحلى هذه اللذعة
الجديدة في عسل مرمر الرابعة
— مرمر ، عايز اعترف لك بحاجة
— ههم ؟
— بس ما تزعليش ؟
— ما تقول
— أنا اتزقت بعت دبله
فصمتت حينما وهي تداعب بأصابعها شعري
— إخص عليك !
— زعلتى ؟ ..

— طبعا زعلت ، ليه تبيع دبله واحده بس ؟ ها !
ليلتان من العسل اللاذع وطارت نحلتي بأزيز ، الله وحده يعلم
أين تطير . وحدى أشرب الليلة ولكنى غير وحيد ، أليست كل
ترترة في السماء مرمر ؟ جامد قوى موش قادرة افتحه ، وبحثت في
شفتيها عن الجنون الساخن في اللحم الحرام . الترترة التي كانت
قطة وأرنبا وشفدعة على بحر يوسف . عبر السموات تطير نحلتي ،
في الثنايا الغامضة من الفضاء تطارد السدم الهاربة ، على سطح
فقاعة الصابون الكبيرة المكهربة . بورك في كل نحلة ملأت ذات يوم
برطمان عسل ، وفي كل شفدعة تنط وكل صرصار يصفر ، وكل
شئ ينبض بالحياة في ليل الهرم . وفي جبل الغسيل وفي هاتين
الشجرتين الحاملتين في الضوء الشاحب ، قوسين حين حول القبر
المثلث الكبير



ست
بنات
اضافيت

بنت ما!



بنت ما!

فلم تعلق الولية على قولى بشيء ، مواصلة تطلعها إلى الأرض ، فتابعت نظرتها عسى أن أكتشف هناك شيئا غريبا ، ولكننى لم أر سوى البلاط المربع الأبيض وشيء كالقشة رفيعا بنيا مشرشا ربما كان ساق صرصار مات وتبعثرت أشلائه . ورفعت بصرى نحوها لأرى أنها قد انتهزت فرصة نظرى إلى الأرض لكى تتفرج هى على ، التقت عيوننا مدى لحظة ثم افترقت بسرعة على غير اتفاق . فتتنحنت من جديد وتململت على الكرسى الصلب ، ووجدت أنه من الضروري أن أجد شيئا أقوله لها .

— بنت حلال أمينة دى .

فتفكرت فى الأمر حينما ثم تصعبت .

— ياما ناس ولاد حلال .

فتصعبت أنا على سبيل العدوى فيما يبدو ، ورفعت رأسى الى سقف الحجرة فى هيئة تأمل . طنين خافت فى الركن البعيد للسقف ، وجسم صغير أسود لذبابه متشنجة فى بيت عنكبوت . لكن العنكبوت نفسه غير موجود هناك ولا شك أنه سيطرب عندما يعود الى البيت ويجد هذه الولية الإلهية فى انتظاره هناك . اللهم إلا إذا مر عنكبوت آخر على البيت وسبقه إلى الغنيمية ، إذا كان من طبع العناكب هذا الداء البشرى الخبيث .

والولية ما برحت تنظر إلى الأرض ، جفونها منتفخة بعض الشيء بما يدل على أنها إما لم تشبع من النوم بالأمس وإما نامت أكثر من اللازم ظهر اليوم . وعلى خديها المكتنز من روج ثقيل وبقعة من روج شفتها السفلى قد ساحت على إحدى فجوات ذقنها المكورة . وفجأة رفعت بصرها نحوى فأسرعت بنزع بصرى الخاص عنها ، وأسرعت بوضع يدي فى جيبي لكى أخرج نوتة أقلب وريقاتها فى اهتمام

قصيرة مكنتزة بيضاء بتاعة ٣٠ سنة و ٨٠ كيلو ، نست أدري لماذا لا تمنحى تلك الولية من ذاكرتى بالرغم من مرور عشرين سنة على الأقل . بنظرة فاحصة مستبرية صافحتنى وبيد طرية كبطن الضفدعة قائلة أهلا ، ثم جلست أمامى على الكنبه صامتة . أغلب الظن أن الكرسى الذى جلست عليه أنا كان مصنوعا من الخشب بدليل ما أذكر من أتى كنت أتلمل عليه طول الوقت .

— أمينة موش هنا ولا إيه ؟

هكذا سألتها فقالت بإيجاز :

— وصلت مشوار

بصوت مبحوح مع أتى أذكر أتى عرضت عليها سيجارة فقالت أنها لا تدخن .

— وراجعة تانى ؟

— موش ده بيتها ؟

فى عينيها نظرة امتعاض لسبب لا أفهمه ، خفضتها نحو الأرض للتخلص كما شعرت من منظرى . وشعرت برغبة لا مناسبة لها فى أن أتحنح ، ثم فى أن أسعل سعلة خفيفة ، توطئة لأن أخرج المنديل وأبصق فيه حتى لا تقول عنى أتى رجل جلف يبصق على الأرض فى بيوت الناس . ثم نظرت فى ساعتى فوجدت أنها — على ما أذكر — السابعة والنصف تماما .

— على الله ماتأخرش

مصطنع ، كأتى منهمك - وهى لاتدرى - فى حل هذه المشكلة الهامة أو تلك .

فسمعتها تتهد دون أن أراها حيث عكفت على النوتة ، لكننى رأيت فى نظرة سريعة ساقها البيضاء المكتنزة ترفع لتوضع فوق ساقها الأخرى ، مع يد مخضبة بالمانيكير الرخيص تمتد إلى ذيل الفستان لكى تغطى به ركبتيها الكروية ، ولكن ليس بالقدر الكافى لمن يلتبس لركبته تغطية شاملة . وكان لزاما على عند ذلك أن أنظر إلى عينيها بوصفهما منفذا إلى روحها ان كان لها روح ، فرددت النوتة إلى جيبى . ناظرا إلى عينيها لم أجد سوى نفس النظرة الثقيلة تحت الجفون المنتفخة ، وثمة لمسة واضحة من الكراهية بدأت تمازج معنى الاستهجان الذى كان هناك من البداية . لسبب ما تكرهنى تلك الولية مع أتنى لم ارتكب فى حقها أى إساءة ، فكان مجرد وجودى يزعجها ، وكان هناك جريمة اسمها جريمة تواجد على قيد الحياة . فينبغى أن أعثر على شىء ظريف أقوله لكى يخفف هذا الجو المتوتر الثقيل

كنا وقتها فى سنوات الحرب فوجدتنى فجأة أتصاحك وأنا أتململ على الكرسي توطئة لأن أقول :

- تصورى ان فيه ناس فاكرة ان هتلر مسلم ، ها ها ! وكان مقدرنا على أن أختتم تلك الضحكة وحدى ، اذ صوبت السيدة نحوى تلك النظرة الكارهاة وقالت فى جفاء :

- ما يمكن مسلم فى قلبه . إحنا حاندخل فى قلوب الناس ! فتحنحت وأنا أقول أى والله ، ونظرت فى ساعتى فوجدت أنها قاربت الثامنة . هذه الولية لايجدى معها الحديث فى السياسة العالمية فهل أحدثها عن الجو ؟

- حر قوى الليلة دى .

هكذا قلت وأنا أهوى ييذى على وجهى فلم تزد عن قولها :
- آهوى كل ليلة .

فاذا كان زى كل ليلة فما سبب هذا العرق الذى بدأت أشعر به يتسلل على ظهري فى خيوط طويلة لزجة ؟ فليتنى أفتح الشيش المغلق للنافذة لتدخل منه نسمة منعشة ، لكننى ذكرت أن منظرنا حيث جلسنا فى تلك الحجرة لن يكون سارا للجيران إذا وجدوا . صوت راديو قريب يتغنى على لسان عيد الغنى السيد بالبيض الأمانة ، وبما أن هذه الأتشي بيضاء فيظهر أنه بياض بياض . وصوت طفل يصرخ بشدة مع صوت امرأة تقول له علشان تحرم يا ابن الكلب فقلت متأفقا :

- ماجش ضرب العيال بالشكل ده .

فزغرت لى كأتى ذلك الطفل الذى عمل شيئا يستحق عليه الضرب .

- موش يتربوا ؟

وفجأة سعلت واهتزت على الكنية بقوة ، ومالت إلى اليمين فبصقت على البلاط غير بعيد من رجل الصرصار ، وأنا الذى أتعبت نفسى باخراج منديل الجنتلمان . والساعة الثامنة وخيوط العرق تتزايد على ظهري وصدري وشىء يقول لى أتنى يجب أن أقوم .

- يظهر ان أمينة ح تتأخر .

فلم تجب ، مشغولة بتجفيف شفيتها بيدها ، ثم بتجفيف يدها فى مفرش الكنية ، ونهضت أنا بسرعة .

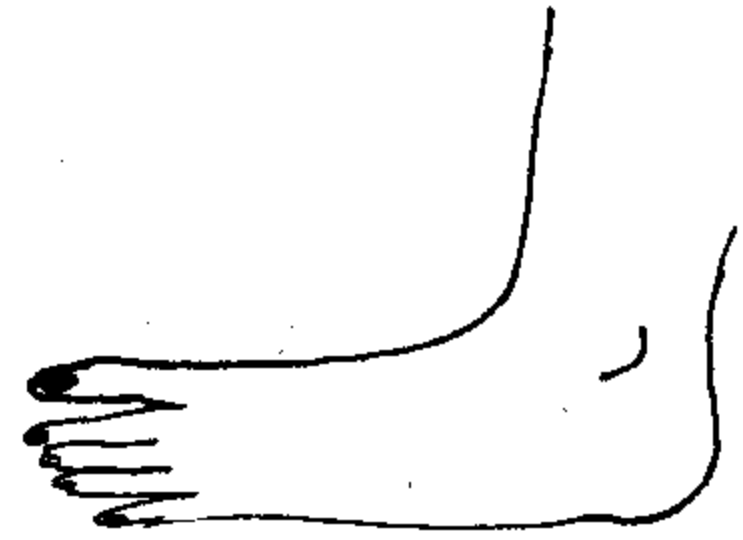
- أستأذن أنا ، وابقى آجى مرة ثانية .

ونفضت السيدة فمددت لها يدي غير مرتاح الى الملمس المتوقع
للضفدعة المبللة ، لكنها أغنتني عن التجربة بتجاهلها ليدي وتحركها
نحو باب الحجرة لتفتحه . ومن ذلك الباب خرجت أنا بسرعة وعبرت
الصالة نحو باب الخروج ففتحته ، توطئة لأن ألتفت نحوها قائلاً
سلامو عليكم ، وحتى هذه التحية المهذبة رفضت أن ترد عليها .
ولست أدري إذا كان هذا صحيحاً أم أنه من صنع مخيلتي ،
صوتها الحاقد الذي ترمى إلى من فرجة الباب قبل أن يقفل ورائي
وهو يقول :

— غور جتك البلا ف دمك ا

فلست أدري لماذا تعلق بذاكرتي هذه التجارب الصبيانية
السخيفة ، ولعلها علقّت بسبب أنها المرة الوحيدة التي شتمت فيها
لأنتي مؤدب .

بنينا
بجميلة



- ماتعرفيش ليه كل ده ؟
- فقالت مازحة لتخفى سرورها :
- لازم عينيه وشفافى وإيديه حلوين .
- لكننى كنت أريد أن أتلفس .
- يعنى إيه حلوين .
- يعنى حلوين .
- لكن حلوين ليه ؟
- لأنهم حلوين .
- فأدركت أنها لم تفهم قصدى بعد .
- لو كنت أنا حمار ، شرحت لها ، كانت عينيكى تسحرى وشفافىك تفتى ؟
- طبعا لا .
- ليه ؟
- لأنك حمار !
- فتبين لى أنتى أسأت اختيار الحيوان .
- بلاش الحمار . لو كنت أسد - لا بلاش أسد كمان - لو كنت نسر ، لو كنت فيل ، لو كنت سيد قشظة ، لو كنت أى حيوان فى الدنيا كنت حاشوف عينيكى وشفافىك حلوين ؟
- غالبا لا .
- ليه ؟
- لأن الحيوانات مابتفهمش .
- تفكرى كده ؟
- آه
- وليه النسر بتعجبه النمرة ، والفيل بتعجبه الفيلة ، والققط

- نظرت فى عينها السوداوين فسحرتانى ، وإلى شفيتها الحمرراوين ففتتانى ، وإلى يديها البيضاءوين فأعجبتانى ، الأمر الذى أثار فى ذهنى ملاحظة وسؤالاً : الملاحظة هى أن صيغة المثنى كريهة جدا ويجب إلغاؤها فوراً ، والسؤال هو لماذا تسحرنى وتفتننى وتعجبنى عيناها وشفاتها ويدها ؟ قرأيت أن أطلعها على مايدور فى ذهنى .
- كان نفسى يبقى لك تلت عيون وتلت شفافى وتلت إيدى فترأت فى عينها نظرة غيظ .
- وده عشان إيه بقى ؟
- عشان تتخلص من صيغة المثنى .
- مثنى ؟
- آه .
- موش فاهمة حاجة .
- قرأيت أن أنتقل إلى الموضوع الآخر
- ماتعرفيش ليه عينيكى بتسحرنى ؟
- عينه ؟
- آه ، وليه شفافىك بتفتنى وحتى إيديكى بتعجبنى ؟
- فابتسمت ورفعت يدها تسوى شعرها ، ثم رفعت ساقا وضعتها على ساق ، ساقاها بدورها أعجبتانى بالرغم من صيغة المثنى .

بتسجبه القطة ، وحتى الصرصار بتعجبه الصرصاره ؟

فسكتت لحظة تفكر ثم قالت !

- كل صنف يحب بعضه .

- وده اللي انا عايز أقوله ، كان لازم اكون راجل عشانأ

أشوفك حلوة .

- دى حاجة طبيعية .

- والحاجة دى موش مضايكاكى ؟

- تضايقنى ليه ؟

- لأنى لو كنت صرصار كنت فضلت عليكى صرصاره .

- طب وانا مالى ؟

- الصرصاره حلوة ؟

- طبعا لا .

- ومع ذلك حلوة فى عين الصرصار .

فسكتت السيدة وراحت تزغر لى

إنت عايز تقول ايه ؟

- ولا حاجة ، عايز أعرف ليه باشوفك حلوة ، وليه عينيكى

بتسحرنى وشفافيك بتفتنى مع إنها مشى .

فنظرت فى ساعتها

- إنت يظهر فايق . ونهضت .

- قمتى ليه ؟

- ماشية .

- على فين ؟

- رايحة للكوافير .

- لكن اتنى شعرك حلو .

- باى باى .

وأولتنى ظهرها وابتعدت .

فلما صارت عند الباب خطر لى سؤال آخر :

- تفتكرى الصرصار بيعجبه شعر الصرصاره ؟

لكنها لم تجب ولم تلتفت ، ويخيل إلى أنها خرجت غاضبة

فهذا عيب معظم النساء ، انهن لا يملن بالمره الى الفلسفة .





بنت
و
قلاية

– كلهم يموتوا فيها .

من هنا تبرز قيمة التفاح كعلاج للملل ، لأنك لن تعطى أيا منهم
تفاحة واحدة .

– وهم يهونوا على ؟

هذا شيء متروك لك أنت ، فيمكانيك أن تفتحى الدولار
وتعطيهم التفاح ليأكلوه ، وبعد خمس دقائق لاغير تبدئين حياة الملل
من جديد .

– برضه موش فاهمة .

هذا لأنك قليلة العقل طبعا ، وإلا ما كنت قصدتى من البداية
لكى أزودك بعلاج الملل – أما زلت راغبة فى ذلك العلاج ؟
– طبعا .

إذن دعى التفاح فى ذلك الركن الخفى من الدولار ، ولا تعطيهم
منه تفاحة واحدة . كل يوم وهم فى الخارج ، أو كل ليلة وهم
يغطون فى النوم ، تتسللين إلى الدولار وتفتحينه برفق ، ومن
الكيس المخبوء تخرجين تفاحة واحدة لتأكليها وحدك لاشريك لك .
– واذا حسوا بى !

هذا هو جمال اللعبة ، فما بين سيرك على أطراف أصابعك فى
الظلام ، وتحسسك باب الدولار الذى أعرف إنه يزيق ، ثم
إخراج التفاحة من الكيس الذى أعرف أنه يخرفش ، ستشعرين
بأنك فى مغامرة طريفة مثيرة ، تلك المغامرة التى تبلغ ذروتها وأنت
تتسللين بالتفاحة إلى الحمام ، حيث تقفين لالتهامها وعينك على الباب
مخافة أن يدخل أحدهم فجأة ، ولذلك يستحسن ألا تضعى ترباسا
على الباب المذكور .

– اشمعنى ؟

ألا تعرف علاجاً – سألتنى نفس السؤال رابع سيدة فى نفس
الأسبوع – للملل والسأم والزهقان والشعور بالفراغ الشديد
الرهيب الأسود القاتل ؟ فقلت لها طبعا أعرف ، فكل ما يضايقك –
أنت وأمثالك ممن سألتنى نفس السؤال – هو افتقار ركن التام إلى
عنصر التفاح .

– التفاح !؟

– أيوه . لازم تاكلى تفاح . تيجى يوم كده تلبسى وتقولى
لجوزك انا نازلة اشترى ...

– (مقاطعة) اتنين كيلو تفاح ؟

– غلط ، نازلة اشترى جونلة أو بلوزة أو أى حاجة .

– وليه ماقولش انى نازله اشترى تفاح ؟

– لأنك ياسيدتى إن فعلت فقدت بهجة الموقف كله ، وحوط
التفاح من علاج للملل إلى مجرد فاكهة عادية تؤكل بعد الغداء .
فلكى يكون للتفاح قيمته العلاجية يجب أن تشتريه سرا ، وأن
تضعيه فى ركن خفى من الدولار ، وهى اللحظة التى يبدأ فيها
حياته كعلاج للملل .

– ولا انا فاهمة حاجة .

هذا طبيعى لأتى لم أكمل كلامى بعد ، فالتفاح كما تعلمين فاكهة
لذيذة يحبها زوجك ، أليس كذلك ؟ ويحبها أولادك أيضا ، أليس
كذلك .

لكي تضاعفى من رهبة الموقف ، وبالتالي تضاعفى من لذة التفاحة التي تأكلينها قطعة قطعة ، قطعة قطعة وأنت خافقة القلب متلاحقة الأنفاس ، متوقعة أن يدخلوا عليك في أية لحظة ويسموك حرامية التفاح ! أيمن أن يتطرق الملل الى نفسك طوال تلك الدقائق المشحونة بالإثارة البالغة ؟

— فى الحقيقة موش ممكن .

ها أنت قد بدأت فى الفهم ، فحاولى أن تعودى بذهنك الى الدولار الذى فيه التفاح . هل له مفتاح ؟

— أيوه .

— هل من عادتك أن تقفليه بالمفتاح ؟

— لا .

التفاح سيرغمك على أن تقفليه ، وعلى أن تضعى المفتاح فى جييك طول النهار والليل ، دقيقة بعد دقيقة وساعة بعد ساعة تضعين يدك فى جييك لكي تتأكدى من أنه موجود هناك وأنت لم تنسه فى قفل الدولار .

— طب وافرض انى نسيته ؟

سيحدث قطعا أن تضعى يدك فى جييك ذات مرة فلا تجدينه هناك ، فتخيلى أى رعب شيطانى سوف يملكك ! وتخيلى جريك المحموم نحو الدولار لكي تحضرى المفتاح ، أيمن لامرأة تجرى بسرعة ستين كيلو أن تعرف معنى الملل ؟

— مستحيل !

إذن فتخيلى نفسك قد وصلت الى الدولار لكي تجدى الوالد الصغير راكعا أمام بابه المفتوح توطئة لفحص محتوياته ، ألن تصرخى من شدة الفزع ؟ ألن تطردى الولد وتسارعى بقفل الدولار وأنت

تلهئين ؟ ألن تعودى بعد ذلك متسللة لكي تعدى التفاح وتتأكدى من أن الولد لم يعبت بمحتوياته ؟ ألن تجلسى ساعة كاملة وأنت تفكرين فى الموضوع وتبحثين مختلف احتمالاته ؟ أيمن لامرأة تفكر بهذا الشكل أن تسرب إليها ذرة من الملل ؟

— برضه مستحيل !

إذن فلنتقل الى الناحية الأخلاقية من الموضوع .. أنت زوجة محبة لزوجك أليس كذلك ؟ وأم محبة لأولادك أليس كذلك ؟ إذن فتخيلى مدى ألمك وخجلك من نفسك كلما تذكرت كمية التفاح الموجودة فى الدولار ، وأنت تبخلين عليهم بذلك التفاح الذى يدفعون فيه أرواحهم . أيمن لانسان معذب الضمير بهذه الكيفية أن يعرف طعم الملل ؟

— أبدا ... أبدا !

لذلك أقول لك ألا تأكلى أكثر من تفاحة واحدة فى اليوم لكي تطول مدة وجود التفاح فى الدولار ، وبالتالي تطول مدة عذاب الضمير ، وبالتالي مدة غياب الملل .

وياحبذا — لكي تزيدى النار اشتعالا — ان تنادى ولدك الصغير

الجميل لكي تقولى له :

— نفسك فى التفاح ياتوتو ؟

— قوى ياماما !

— قوى قوى يا حبيبي ؟

— قوى قوى قوى ياما ..

— يا خسارة يا حبيبي .. ما عندناش !

وتتخيلين كيلو التفاح الموضوع فى الدولار فكأن قلبك ينظر حسرة على الولد ، وتهمين بأن تقومى فتخرجى الكيس وتضعيه

أمامه ، لكنك تذكرين الناحية العلاجية فتحججين وتجلسين في معركة خطيرة ملتهبة بين صوت العقل ونداء العاطفة . فهل يمكن للملل أن يجد ثغرة يتسرب منها خلال هذه المعركة المحتدمة ؟

— مستحيل !

ولسوف يرغبك الموقف على أن تشرعى في عملية ذهنية لا أظن أنك تمارسينها كثيرا وهي عملية التفلسف . فسوف تسمعين في داخل نفسك أصواتا مختلفة تتحاور فيما بينها بالكيفية التالية :

— أنت تأكلين التفاح وحدك اذن فأنت مجرمة !

— لكنهم يأكلون البرتقال !

— التفاح ألد وأعلى .

— ولكنهم لم يأكلوا التفاح منذ شهر !

— هذا ادعى لأن يأكلوه الآن !

— إنهم لا يعرفون أنه موجود !

— ولكنه موجود !

— سوف أشتري لهم كمية خاصة بهم !

— ولكنك انفردت بهذه الكمية دونهم !

— إنه كيلو لاغير !

— الكم لاقيمة له في الجريمة !

— ولكننى ..

— إخرسى يا مجرمة !

فتشعرين بالدموع تتجمع في عينيك وبالزفرات المكتومة تخنق صدرك ، وتتمنين أن تخبطي رأسك في ضرفة الدولار المقل على التفاح المخبوء . فهل يمكن أن تشعري في هذا الموقف العصيب بالملل ؟

— مستحيل ! مستحيل !

وتخيلي أن الفأس وقعت في الرأس وأنهم نجحوا بطريقة ما في العثور على تفاحك المخبوء .. أى خجل ! أى كسوف ! أى ذلة ! أى دموع ! أى اعتذارات ! أى توسلات ! أى أيام عصيبة محسومة تمر بك وكل من حولك يزغرون لك ! خجل وندم ويأس ودموع ثم تبدأ النظرات تلين حولك ، شيئا فشيئا تلين وتنسى حقدتها الأسود ، حتى ينجح الزمن كعادته في شفاء الجروح فتشرق في البيت شمس الصفح من جديد . شهر أو قرابة شهر وأنت تعيشين في هذه الدوامة الرهيبة ، فهل يمكن أن يتسرب اليك في خلال ذلك شيء من الملل ؟

— ده رابع المستحيلات !

أضيفى إلى هذا لذة التفاح التى لا يختلف فيها اثنان ، وأخبرينى ماذا يمنعك من أن تنزلى من فورك الى الفكمانى !؟

— والله فكرة !

وإذا كان كل هذا سيحدث وأنت تأكلين التفاح وحدك ، فتخيلي ماذا يمكن أن يحدث اذا أشركتنى في تفاحة أو اثنتين !



تاپچه!

بیت و



۸۸۸

فأدركت أن الأمر أخطر مما أظن ، وبلغ من عدم تصديقي لما
أسمع أنني اشتبهت في وجود خلاف بيننا على ماهو التفاح ، وأنها
ربما كانت تهاجم التفاح هذا الهجوم العنيف وهي تعنى فاكهة
أخرى غير التفاح الذي أعرفه أنا وأعرف أنه لايلقى من الناس إلا
كل ثناء .

سألنها مستوثقا :

– اتى بتكلمي عن التفاح اللي هو تفاح ؟

– طبعا .

– طيب اوصفيه لي .

فوصفته لي وهي تتقرز ، من حجمه الكروى إلى لونه الأحمر
بما لم يترك لي مجالا للشك في أننا نتكلم عن نفس الفاكهة ، الأمر
الذي لم يزدني بالطبع إلا دهشة .

– وعمرك مادقنيه ؟

– عمري .

– ولا حتى في شكل كومبوت ؟

– ولا كومبوت .

– ولا مربى ؟

– ولا مربى .

فأسقط في يدي ، واختلست النظر إليها في ريبة من أمرها ،
موشكا على أن أشك في قواها العقلية لولا ما أعرفه عنها من أنها
سعيدة ناجحة في حياتها ، زوجة وأما لطفلين ، ومصدرا للمرح حيثما
وجدت ، وذواقة لما تسمع من النكت الرائعة خصوصا التي أقولها
أنا .

– لازم بقى (قلت لها شارحا) عندك عقدة نفسية . صحيح أنا

في ذات يوم منذ شهر ، بدأت معها مناقشة هامة عن فاكهة من
ألد الفواكه وهي التفاح ، تلك المناقشة التي كان يمكن أن تشر عن
عدد لا بأس به أبدا من الفوائد الثقافية ، لولا أن قطعها علينا –
المناقشة – دخول مجموعة من الناس الذين لا يميلون إلى المناقشات
الثقافية ، حتى ولو كانت ذات طابع غذائي هام ، وحتى لو كان
موضوعها هو التفاح نفسه .

كنا نتحدث عن الفاكهة عموما ، إذ مررنا بالوز والرمان والبرتقال
والبرقوق وحتى بلح عيشة ، ثم وصلنا إلى التفاح الذي ما كدت
أنطق باسمه حتى هتفت جليستي في فزع لا لزوم له :

– تفاح ؟ أعوذ بالله ! تفاح ؟ ياساير ! تفاح ؟ يامغيث يارب !
اوعى تجيب لي سيرة التفاح !

فظننتها تمزح ، ولكنها أكدت لي انها جادة كل الجدة ، وشرحت
لي تلك الحقيقة العجيبة ، حقيقة أنها لم تذوق طعم التفاح خلال
الأعوام العشرين الماضية علما بأنها في الخامسة والعشرين ، وإنها
في علاقتها بالتفاح لا تكرهه فحسب ، بل ترهبه وتخشاه وتعتقد
أنها لو ذاقته لحتل بها متاعب كثيرة أقلها عسر الهضم والغثيان
والمغص الذي لا ينفع فيه نيمارول ولا كلوريدين .

– بتكلمي جد ؟ صحيح مابتجيش التفاح ؟

– أرجوك ماتنطقش بالكلمة دي خالص . تفاح ؟

أعوذ بالله ! تفاح ؟ ياساير يارب ! تفاح ؟ احفظنا يارب !

ما سمعتش عن عقدة معينة اسمها تفاحزم ، لكن كل شيء ممكن في علم النفس .

– إيه (سألتنى) اللي ح يجب لى عقدة نفسية من التفاح ؟

– يسكن واتى صغيرة كلتى تفاحة كان والدك مخيبها لنفسه في الدولاب ، فلهفك قلمين عقدوكى من التفاح كله . ويمكن التفاح مرتبط في ذهنك بحاجة تانية مزعجة ، زى – مثلا – مدرس حساب اسمه تفاح افندى . أنا اعرف واحد يكره البطيخ موت لأن كان له مدرس اسمه بطيخ افندى .

فتفكرت في الأمر وقالت :

– ده موش شرط . انا احب الرمان موت مع ان كان عندى مدرس اسمه رمان افندى .

– مدرس حساب ؟

– لأ ، مدرس تاريخ .

– عشان كده ، العقد غالبا ماتجيش الا من مدرسى الحساب .

فهزت كتفها في استخفاف وقالت :

– على كل حال المسألة موش مهمة . انت ليه عايزنى أحب التفاح ؟

– لأنه حلو ، فيه سكر وفيتامينات ، وشكله جميل جدا ، وكفاية انا خرجنا من الجنة بسبب التفاحة اللي زافت عليها عين سنك حوا . اتى مدينة للتفاح بوجودك في الحياة .

– وحد قالك انى سعيدة بوجودى في الحياة ؟

– طبعا لأ ، تبقى سعيدة ازاي واتتى ما بتاكلش تفاح ؟

فأفحمت وسكتت ، ورأيت في نظرتها الساهمة بريقا يدل على أنها

قد بدأت تقتنع بمنطقى وتحسن بفرابة ذلك الموقف الذى تفقه من التفاح .

قالت متهية :

– يعنى تفكر لو كلت تفاحة مايجرايش حاجة ؟

– طبعا لأ . عمرك سمعتى على حد جبرى له حاجة من أكل

التفاح ؟

– لأ .

– خلاص ، كلى تفاح ، قومى بينا نشترى كيلو تفاح وننزل

عليه نخلصه . أنا لى طريقة ممتازة في تقشير التفاح ، تصورى انى

ألف بالسكينة على التفاحة وهى صحيحة ، واقشرها قشرة واحدة

حلزونية طويلة ؟

– موش معقول !

– آدى احنا فيها ، والمية تكذب الغطاس !

فلست أدري لماذا تورد وجهها ، وصار أشبه بتفاحة حمراء .

– أنا متأكد (واصلت كلامى) انك لو دقتى تفاحة واحدة

ح تفهمى تاريخ البشرية كله ، من حوا ونازل .. ح تحسى بطعم

جديد ، وعطر لذيذ ، العطر اللى جذب حوا لشجرة التفاح ، وقعدتها

تحتها يوم ورا يوم وهى بتفكر في حياتها الميتة مع آدم ، وتقول له

والنبي يا آدم .. عايزة من ده !

فازداد البريق في عينيها السوداوين اتساعا وعمقا ، مثل دائرة

لامعة من الماء تتسع على سطح بحيرة ساكنة ، لحظة قبل أن تغشى

عينا تلك السحابة الجديدة الداكنة .

قالت في خوف :

– لكن افرض انى خبيت التفاح ؟



بنك مالية

- طبعا ح تحبيه .
- التفاح غالى ، وميزانية جوزى محدودة .
- فأدرکت ماتعنى وقلت :
- التفاح عمره ماكان من التزامات الزوج بعد انتهاء الخطبة وشهر العسل' .
- فلم تعلق بقول ، واسترسلت أنا :
- موش مهم مين يجيب التفاح . المهم انك تاكلى تفاح ، وتشبى تفاح ، قبل ماتلاقى نفسك عجوزة مسكينة ، مافيش فى بقك سنان لتفاح ولا حتى لموز !
- وسكنت لأنظر إليها حيث جلست صامته تفكر ، وأحسست برضى مريح عن نفسى ، إذ وصلت فى اللحظة المناسبة لكى أتقذ تلك السيدة من نفسها ، ولكى أفتح عينيها السوداوين الجميلتين على مدى ما تفقده بسبب هذا الموقف اللاتفاحى الشاذ .
- ورأيتها تفتح فمها لتقول شيئا وأنا واثق من انه كان شيئا عاقلا فى صف التفاح ، ولكنها سكتت بسبب ما سلفت الإشارة إليه من دخول الناس الذين لايجبون المناقشات الثقافية .
- ومرت الشهور ولم أرها ثانيا ، ولكننى أذكرها دائما كلما جلست آكل تفاحة وحدى بعد أن أدور عليها بالسكين مقشرا إياها قشرة واحدة طويلة ، حلزونية معطرة حمراء .



خذ بالك من هذا الرد اللطيف ولاحظ أثره عليها في الابتسامه
التي تغالبها وهي تسترسل :

— أنا اسمى ميمى ، وثانيا برده اخص عليك !

— ليه بس ياميمى ؟

— ليه ؟ لأنك وجدت الجرأة على انك ماتظهريش في حياتي طول
العشرين سنة اللي فاتوا !
فماذا أقول لها سوى :

— أنا .. إيه ؟ .. آه .. أيوه ... أنا ...

وهكذا متلعثما متخبطا ، شاعرا بفداحة الجرم الذي ارتكبه في
حق هذه الفتاة البريئة . عشرون عاما وأنا تارك اياها دون أن أظهر ،
حاجة موش لطيفة أبدا ، الي أن أقول عندما أعثر على الكلمات :
— والله ياميمى أصلى في الكام سنة اللي فاتوا دول كنت مشغول
شوية ... مقنعة ، هه ؟

— طب معلش .. سامحتك المرة دي .. انت اسمك إيه ؟

— محمد .

فما تكاد تسمع هذه الكلمة حتى تلمع عيناها إعجابا وسرورا .

— الله .. يا سلام .. اسم مبتكر خالص .. مين سماه لك ياترى ؟

— أظن والدتي .

— لازم ست مثقفة قوى !

— طبعا يا ميمى .. هم سنتين في الكتاب شوية ؟

فتقول وهي تنهد :

— آه لو تشوف جوزي .. آه طويل . عريض .. ابيض .. شعر

أصفر .. عين زرق لو أقول لك ايرول فلين تقول كدابة

— يا حفيظ .. وحش للدرجة دي ؟

بصراحة تامة أنا لا تعجبنى نساء هذه الأيام ، ذوقهن ماتعرفش
ازاي غريب نوعا ، لاسيما في تقييم الرجال . تصور مثلا أن منهن
من يتعرفن بي ، ثم ينصرفن عني ، دون أن أترك فيهن أى أثر ،
علما بأن بعضهن يتعرفن بي وأنا أرتدى البنطلون الرمادي الجبردين ،
وعليه القميص البني المنغش ؟؟

من هنا نشأت في ذهني صورة الفتاة المثالية الكاملة ، تلك الفتاة
الذكية الناصحة حسنة الذوق ، التي ما يكاد يقع بصرها على حتى
يبدو عليها مالا بد قد بدا على الأميرة النائمة عندما أيقظها الأمير
الذي اعتذر عن ذكر اسمه حيث أننى قد نسيت .

دهشة وحيرة وافتتان ، وعدم تصديق أنها ترى ماترى . فما
تكاد تسترد هدوءها حتى تمط بوزها الجميل في تكشيرة عذبة
وتقول :

— إخص عليك !

القول الذي يدهشني بالطبع من فتاة مثالية مثلها ، لولا أننى
ألحظ المد الواضح في المقطع الأخير من كلمة « عليك » فأدرك أنها
إخص للدلال فحسب .

— ليه ياسوسو ؟ إخص عليه ليه ؟

هكذا أسألها فتقول في غضب :

— أولا أنا ما اسميش سوسو .

— غريبة قوى .. مع إن شكلك سوسو خالص !



— وأوحش يا ... انت قلت لي اسمك ايه ؟

— محمد .

— آه .. محمد .. محمد .. محمد ...

وتتملظ بالاسم الجميل المتكرر ثم تسترسل :

— فين هو وفين انت .. فين عنيه من عنيك .. فين شعره من شعرك .. فين مناخيره من مناخيرك .. انت كنت بتلعب ملاكمة يا محمد ؟

— لا أبدا .. ليه ؟

— لا مافيش حاجة .

وتقوم فجأة من حيث هي جالسة بجانبى لتدور في الحجرة كالقراشة وهي تقفز وتصفق (حيث أنني أحب المرح في فتياتى المثليات لاسيما لو مزج بشيء من الجنون)

— أنا سعيدة .. أنا سعيدة !

هكذا تهتف وهي تدور حولي راقصة ، ثم تتوقف فجأة لتنظر الى نظرة جدية وهي تقول :

— ليه الإسراف ده يا محمد ؟

— إسراف إيه ؟

— تنور النجفة والأباجورة في وقت واحد ؟

وتمد يدها لتطفىء النجفة ، توطئة لأن تعود لتجلس بجانبى

— ميسى ...

— ايه يا حمادة !

— الأباجورة دي موش برضه إسراف ؟

فتمد يدها لتطفىء النجفة ، فتاتي المثالية حسنة الذوق .

ترفع يدها لكي تسوى خصلة أطارها الهواء المذكور من شعرها .
أظافر يدها وردية اللون بمانيكير ماكسي فاكتور ، ذلك المانكير
الذي تشتريه من ها - معذرة أعني آ - نو .

عشرات من الإناث يقدن عشرات من السيارات ويسرقن بها
أمامي كالسهم على كورنيش الاسكندرية ، معظمهن قاصدات الى
المنتزه والمعصرة . أين أزواجهن لا أدري ، وربما كانت لهن سيارات
أخرى ذهبوا بها الى مشاويرهم الخاصة ، وربما كانوا مازالوا نائسين
من تعب الليل ، وربما كانوا قد آثروا البقاء في البيت لكي يأخذوا
يالهم من العيال ويشقروا بين الحين والحين على حلة بامية . كل شيء
ممكن أمام هذا الجيل الغريب من النساء السائقات .

واحدة منهن وجدت نفسي وراءها في الفور ٥١ ونيتي كمان ،
نزوة شعرها الأصفر الطائر أغرتني بأن أدوس بنزني الخاص لكي
ألحق بها وأخذ فكرة عن أمامياتها . فما كدت أفعل حتى فجعت ،
إذ كان شعرا مصبوغا زائفا لحيزبون بنت ستين ، خدعة دنيئة
لأمثالي من الذكور السائقين . وذلك بالرغم من أن السيارة فيما
أذكر كانت كريزلر ٦٥ ، تلك الحقيقة التي تثير في النفس هذا
السؤال المحير : كيف أمكن لهذا الوجه العكر أن يجتذب كل هذه
الكتلة من العملة الصعبة ؟

وسائقة أخرى سدت الطريق أمامي بمشيتها البطيئة الملتوية ربع
ساعة كاملة ، وأخيرا نجحت في أن أسبقها لكي أرى وراء
الدركسيون حرمة وزنها مائة كيلو على الأقل ، ووجهها منتفخ
كبالون أحمر ، وبنضارة كمان . فزغرت لها وزغرت لي ، ولعنت
أبا الزمن الذي نقل هذه الكتلة من مكانها الطبيعي وراء الطبلية
حيث تخرط الملوخية ، خاصة وأنها كانت تمسك الدركسيون من

بمزيج من الاعجاب والدهشة أتابعها بصرى - أثنى القرن
العشرين - وهي تتهادى نحو سيارتها الفاخرة ، سلسلة المفاتيح
تتدلى من يدها اليمنى وتصطدم مع كل خطوة - في إيقاع فاتن -
بجانب فخذها الرشيق الملفوف في البنطلون الهيلانكا الأسود . فهي
لن تفتح الباب الخلفي للسيارة مثلما كانت تفعل أمها ، بل هي
سوف تفتح الباب الأمامي بثقة ، توطئة لأن تنزلق إلى مكان السائق
الذي كان دائما ذكرا .

كالذكر ستضع المفتاح في الكوتتاكت وتدير المارش ، لا يرهبها
ذلك الهدير الذي ينبعث فجأة من جوف الموتور ، والذي لو سمعته
جدتها لصوتت أو صرخت أو على الأقل شهقت قائلة ياندامتى .

وكالذكر سوف تدوس الدبرياج وتعشق الفتييس ، ثم تدوس
البنزين وتطلق في بساطة ولا كأنها تقود مائة وعشرين حصانا .

فإذا وجدت أمامها أوتوييسا ضخما فهي لا تخاف ولا تتمهل ،
بل تضغط على الكلاكس بحزم وهي تكسر شماله لتسبقه من قبل
أن يفسح لها ، لاتهمها بنكلة تلك الزغرة الرهية التي يصوبها إليها
الأسطى رفاعى سائق الأوتوييس ، ولا شبه الخطير الذي يستطيع
به - إذا شاء - أن يعشق الفتييس .

هي لن تخلص إذا اهتمت بكل زغرة أو حتى بكل تعليق بدىء ،
سيضيع وقتها في المهاترات الفارغة وهي التي خرجت لتغزو . على
سفلت الكورنيش الساخن تسابق هواء البحر ، وبين الحين والحين

الناحيتين وتحركه بنفس الطريقة التي تحرك بها المخرطة .

لكن هذين النموذجين ليسا بحمد الله إلا نوعا من النشاز في اللحن العام الذي تعزفه سائر السائقات في سيمفونية الاسكندرية ، فمعظمهن شابات وفاتنات ، آخر جمال وآخر هيلانكا وآخر شيكا من عندها - أعني آ - نو .

وجدتني ذات صباح أشرف من نافذة الفورد اليسرى على أثى من هذا النوع حيث جلست بجانبى - عند الإشارة - أمام دركسيون سيارتها الخاصة . أقول « أشرف » لأن سيارتها كانت واطئة بشكل لافت للنظر ، وان كنت أشك أن لفت النظر كان هو الهدف الوحيد الذى داعب خيال المهندس صاحب تصميمها . فهو فى الغالب قد صممها بهذا الشكل - واطئة عريضة زرقاء - لكى تسير بسرعة مائة ميل دون أن تنقلب فى الملفات ، جاجوار رياضية لزوم الأثى العصرية التي وراها شغل . وهذه الأثى بالذات كان وراها فيما يبدو شغل جد خطير ، بدليل قدمها القلقة على مفتاح البنزين وهي تنتظر فتح الإشارة . قدم صغيرة لطيفة فى حذاء من جلد تمساح ميت ، منه ينبثق شراب كاروهات بنى لامع ، فى نعومة ينساب مع استدارة الساق توطئة لأن يتسلل الى جوف الجونلة النبيتى التي تشير إلى أن المكان الطبيعى لهذه الأثى هو سيارتى أنا . والجونلة إذا شئت أن تعلم - فى حدود معلوماتى الكسائية - من قماش فى أغلب الظن ترجال ، تعلوها بلوزة كنت أظن قبل أن أراها أن قميصى أبيض . على شفيتها ووجتها أثر واضح من ماكس فاكور واليزابيث آردن ، وكذلك فوق جفניה ، دعك من النفحة السماوية التي دفعها هواء البحر الى أنفى - مشكورا - من نفحات ديور .

قدمها قلقة على البنزين ويدها قلقة على الدرکسيون ، ورفعت يدها الأخرى إلى فمها وشرعت تعض إبهامها . متوترة مسكينة وفى إصبعها دبلة تقول أنها متزوجة ، الأمر الذى يدل على أن قيادة السيارات - حتى الجاجوار منها - لم يصل بالأثى الى الدرجة الكافية من التكيف العاطفى مع حياتها . أنا مثلا - وأنا أقود هذه الفورد الكهنة - لماذا لا أعض أصابعى ؟ ولماذا لا أتعجل فتح الإشارة بل على العكس من ذلك أتمنى أن تظل نصف ساعة حمراء ؟ ويبدو أنها شعرت بنظرتى فالتفتت نحوى ورأتنى ، قابلت منى نظرة هادئة متكيفة مع الحياة ، تلك النظرة التي شفعتها بالابتسامة التي اعتقدت أنها تناسب الموقف ، ابتسامة تشجيعية لا أقصد بها شيئا سوى رد الطمأنينة الى تلك النفس الحريص المتوترة . لكنها لم تفهمها على هذا الأساس بدليل النظرة اياها التي من فوق لتحت ، قبل أن تشيح بوجهها وتواصل عض إصبعها ، مع استخدام يدها الأخرى فى شد ذيل الفستان على ركبته . فهي كما ترى تعاني شعورا شديدا بالذنب ، وعن طريق الإسقاط تريد أن تلبسنى أنا تهمة البخلقة الى ساقها مع أننى كنت أنظر الى وجهها ، ومع أننى حتى عندما نظرت قبل ذلك الى ساقها لم أكن أهدف الى شيء سوى أن أستوثق من أنه من ها - آ - نو .

فما كادت الإشارة تخضر حتى تموجت الركبتان فى إيقاع سريع وجميل ، واذا بالجاجوار التي كانت بجانبى نقطة فى آخر الطريق . فالجاجوار ان كنت لاتعلم اسم لنوع من الفهود ذات السرعة الفائقة وهذا هو سبب اطلاقه على هذه السيارة السريعة . فينما أنا أرقبها من بعيد تساءلت هل مازالت تعض إصبعها ، ولماذا ؟ زوجها على البلاج تريد أن تلحق به أو فى البيت تريد أن تهرب منه ؟

أم تراها مدام بوفاري من طراز عصرى، ثمة شاب ينتظرها في إحدى كبائن المنتزه وأمامه جردل ساقع يحتوى على زجاجة تنتظر وصول الجاجوار العطشى ؟

فإذا صح هذا فلاشك أن الزجاجة ستكون عند وصول السيدة كتلة من الثلج ، بدليل أننى ما لبثت أن لحقت بها عند أحد منعطفات الكورنيش محبوسة من جديد وراء الأسطى رفاعى . السيدة تضرب الكلاكس بشدة ، ولكن ماذا يفعل الأسطى رفاعى وهو بدوره محبوس وراء لورى ضخمة من بتوع المجرى ؟ فالاسكندرية فى أغسطس كما تعلم تغص بالناس الذين يأكلون ويشربون أكثر مما ينبغى ، ولا يقنعون مثل هذه السيدة بعضضة الأصابع .

كان الكلاكس القلق المتلهف أشبه بمن يقول :

— اطلع يا إنت ! امشى يا بايخ ! وسع يارزل !

لكن الأسطى رفاعى لم يأخذ فيما يبدو بهذا التفسير ، بل فهم أشياء أخرى رآها تتناقض تناقضا جذريا مع كرامة شنبه . فلذلك أطلت من نافذة الأتوبيس فردة من ذلك الشنب ، توطئة لأن يفتح الباب وينزل الى الطريق صاحب الشنب ذات نفسه ، متجها الى الجاجوار الواطئة الزرقاء والشرر يتطاير من عينيه . وبجانب الجاجوار وقف كالعملاق يشوح بأطرافه المختلفة ويردح :

— أروح لك فى أنهى داهية ؟ أشيل لك اللى قدامى ؟ أطلع لك على الرصيف ؟ أنزل لك فى البحر ؟ أطير لك فى السما ؟ ياناس خلو عندكو نظر ؟ ولا خلاص يعنى كل من اشترت لها عريية يبقى الشارع شارع أبوها !؟

وكان كلاكس السيدة قد سكت بالطبع إزاء هذه الثورة ، وكذلك سكتت السيدة وهي تصعر للرجل خذا متجاهلا يقول له

أنها فوق كل هذه المهارات الأيديولوجية . فكان من الممكن أن يواصل الرجل إلقاء المحاضرة لولا أن تحرك لورى المجرى وتعالى الكلاكسات تقول له أن الوقت ليس وقت هذا الجوار الفكرى بينه وبين السيدة . فانصرف الى أتوبيسه وهو يقول كلاما لم أميز منه إلا الجانب الخاص بالمسخرة التى صارت الطابع العام لشارع الكورنيش ، وبميله الى الظن بأن القيامة ستقوم فى موعد أقصاه ديسمبر ١٩٦٧ . فما كاد يقفل الباب عليه حتى ارتفع كلاكس السيدة مطالبا بإفراح الطريق ، ومن النافذة شوح ذراع الأسطى رفاعى قائلا لها مامعناه فوتى جتك البلا .

فمرقت السيدة بجانبه كالسهم ، وحاولت أنا أن أمرق ولكنك تعرف الفرق بين الجاجوار والفورد حتى ولو كانت نيبتى . فاكتفيت من الحكاية بالخيال ، تقصت مدى لحظة شخصية ذلك الرجل الجالس أمام الجردل الساقع ، عبر عنق الزجاجة المائل ينظر الى البحر الأزرق العريض حول المنتزة . فلو اننى كنت مكانه لركبت على البيك آب هذه المنيويت أو تلك ، وترقصت وحدى من نشوة توقى للجاجوار الزرقاء .

نعم ياسيدى ، بمزيج من الإعجاب والدهشة أتابع بصرى أتشى العصر وهى تتجه الى سيارتها الفاخرة ، لكننى أشعر أن هذا الهجوم الحريمى على قيادة السيارات لا يمكن أن يكون إلا نذيرا بتطور شامل فى نظام المجتمع . فلن يدهشنى إذا رأيت البشرية بعد ٥٥٠ سنة من قيادة النساء للسيارات . ترتد الى ذلك النظام الأموى القديم ، الذى فيه يكتفى باتساق الطفل الى أمه ويسمى — عندما يكبر — ابراهيم أفندى فاطمة . وهذا شىء لا يخفىنى ما دام يسرى على الجميع ، وإنما أخشى أن يقترن هذا التطور

الاجتماعى بتطور بيولوجى مقابل يلحق بأثى البشر ، وأن أطل
عليها ذات يوم فى الجاجوار الزرقاء فأجد انه قد نبت لها شنب
كالأسطى رفاعى ! فمثل هذا المنظر لن يطربنى ، مهما كانت قد
تحايلت على طلاء هذا الشنب وتعطيره بأحدث مستوردات ها .
أعنى آ - نو . وان كان من المحتمل أن يطرب الجردل - معذرة
أعنى الشاب - الجالس أمام الجردل فى كايين المنتزه ، فقل معى
أوه لا لا .

